الْفَصْلُ الرَّابِعُ

مظاهِرُ التَّجْديدِ في مجالِ مَنهجِ «البهيِّ» الْعِلْمِيِّ

- مَنْهَجُهُ في العَقيدَةِ .
- مَنْهَجُهُ في التَّفْسيرِ .
- مَنْهَجُهُ في الاقْتِصادِ .
- مَنْهَجُـهُ التَّشْـرِيْعِيُّ في فِقْـهِ العبـاداتِ :
الصَّلاةُ ، الصِّيامُ ، الزَّكاةُ ، الْحَجُّ .

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ

مَنْهَجُهُ في الْعَقِيدَةِ

عِنْدَما يَتَناوَلُ البحثُ ، مَنْهَجَ « البَهِيِّ» في الْعَقيدَةِ ، يَجِدُ أَنَّهُ : يَمِيْلُ إِلَى الدِّراساتِ الْبَحْثِيَّة ، والموضوعِيَّةِ الوَصْفِيَّةِ ، الْمُدَعَّمَةِ بالْمُقارَنَةِ والرَّأْيِ . ثُمَّ يَتِمُّ عِنْدَهُ الاخْتِيارُ ، فالتَّحْليلُ ، والتَّوجيهُ . بُغْيَةَ التَّرْبِيَةِ والإصلاحِ ، والاسْتِقامَةِ والتَّقويمِ .

مَعَ الاعتبارِ بأَنَّ الدِّيْنَ والتَّدَيُّنَ ، أَمْرٌ فِطْرِيٌّ في الإنْسانِ ، وَإِنَّ الْعَقِيدَةَ الْحَقَّةَ : هيَ عَقِيدَةُ الإيمانِ بإلهٍ واحِدٍ ، لا شَريكَ ولا نِدَّ لَهُ . وَهِيَ الْعَقِيْدَةُ الْمُتأَصِّلَةُ في نَفْسِ ، كُلِّ نَسَمَةٍ مِنَ النَّاسِ ، الْمُودَعَةُ في فِطْرَتِها الأُولَى . يقُولُ اللهُ تعالَى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف:١٧٢).

تَعْنِي الآيَةُ الكريمَةُ ، أَنَّ : كُلَّ فَرْدٍ مَنْ بَنِي آدَمَ عليهِ السَّلامُ ، مَفْطُورٌ على التَّدَيُّنِ والتَّوْحِيدِ ، كَما أَخَذَ اللهُ تعالَى عليهِ الْعَهْدَ ، وأَشْهَدَهُ على رُبوبِيَّتِهِ . حِيْنَ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ بَنِي آدَمَ مِنْ أَصْلابِ آبائِهِم . فَلَيْسَتِ الْعَقِيْدَةُ إِذاً ثانَوِيَّةً في حياةِ الإِنْسانِ ، وَلا فِكْرَةً طارِئَةً ، ولاَ هَوَساً عَقْلِيّاً .

إِنَّما هِيَ مِنْ صَميمِ تَكْوِينِهِ ، وَمِنْ أُولَى حاجاتِهِ ، وهِيَ صُلْبُ كُلِّ الرِّسالاتِ السَّماوِيَّةِ ، وَمِحْوَرُ الدَّعَواتِ الرَّبانِيَّةِ . فالإِيْمانُ باللهِ تعالَى ، يُلَبِّي نِداءَ الْفِطْرَةِ الإِنْسانِيَّةِ الصَّحِيحَةِ ، وهِيَ الْجِبِلَّةُ الَّتي خَلَقَ اللهُ تعالَى عليْها الْبَشَرَ ، فَهُمْ

مَفْطُورونَ عَلَى قَضِيَّةِ الْعَقِيْدَةِ ، الَّتِي يَعْرِضُها السِّياقُ الْقُرآنِيُّ ، في صُورَةِ مَشْهَدٍ فَريدٍ (إنَّهُ مَشْهَدُ الذُّرِيَّةِ الْمَكْنُونَةِ في عالَمِ الْغَيْبِ السَّحِيْقِ ، الْمُسْتَكِنَّةِ في ظُهُورِ بني آدَمَ ، قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ إلى العالَمِ الْمَشْهُودِ . تُؤْخَذُ في قَبْضَةِ الْخالِقِ الْمُرَبِّي ، فَيَسْأَلُها : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ . فَتَعْتَرِفُ لَهُ سُبْحانَهُ وتعالَى بالرُّبوبيَّةِ ، وَتُقِرُّ لَهُ سُبحانَهُ [وَجَلَّ شأنُهُ] بالعُبودِيَّةِ ، وَتَشْهَدُ لَهُ تعالَى بالْوَحْدانيَّةِ ، وَهِيَ مَنْثُورَةٌ كالذَّرِّ ، مَجْمُوعَةٌ في قَبْضَةِ الْخالِقِ الْعَظِيْمِ . . . إنَّهُ مَشْهَدٌ كَوْنِيٌّ رائعٌ باهِرٌ .

حينما يَتَصَوَّرُ الخيالُ البشَرِيُّ ، تلكَ الخلايا الَّتِي لا تُحْصَى ، وَهِيَ تُجْمَعُ وَتُقْبَضُ . وهِيَ تُخاطَبُ خِطابَ الْعُقلاءِ ، بِما رُكِّبَ فيها مِنْ الخصائِصِ الْمُسْتَكِنَّةِ ، الَّتِي أَوْدَعَها إيَّاها الخالِقُ الْمُبْدِعُ سُبحانَهُ وتعالَى ، وهِيَ تَسْتَجِيْبُ اسْتِجابَةَ الْعُقَلاءِ ، فَتَعْتَرِفُ وَتُقِرُّ وَتَشْهَدُ ، ويؤْخَذُ عليها الْميثاقُ في الأَصْلابِ!.... إنَّ ناموسَ التَّوحِيْدِ ، الَّذي يَحْكُمُ هذا الوجودَ ، واضِحُ الأَثَرِ في شَكْلِ الكَوْنِ ، وتَنْسِيْقِهِ ، وتَناسُقِ أَجْزائِهِ ، وانْتِظامِ حَرَكَتِهِ ، واطِّرادِ قَوانِيْنِهِ ، وَتَصَرُّفِهِ الْمُطَّرِدِ ، وِفقَ هذهِ القوانينِ .

هذا النَّامُوسُ الَّذي يُصَرِّفُ الكونَ كُلَّهُ ، بِقَدَرِ الله تعالَى الْمُطَّرِدِ ، الْمُتَجَدِّدِ وِفْقَ مَشيئَةِ اللهِ تعالَى الطَّليقَةِ ، سارَ كذلكَ في كيانِ الإنسانِ ، بِوَصْفِهِ مِنْ كائِناتِ هذا الْكَوْنِ ، مُسْتَقِرٌّ في فِطْرَتِهِ ، لا يَحتاجُ إلى وَعْيٍ عَقْلِيٍّ للإحْساسِ بِهِ ، فَهُوَ مُدْرَكٌ بالْفِطْرَةِ ، مُسْتَقِرٌّ في صَمِيمِها ، تَسْتَشْعِرُهُ بِذاتِها ، وَتَتَصَرَّفُ وِفْقَهُ ، ما لَمْ يَطْرَأْ عليها الْخَلَلُ والْفسادُ ، فَتَنْحَرِفَ عَنْ إدْراكِها الذَّاتِيِّ لَهُ ، وَتَدَعَ للأَهْواءِ الْعارِضَةِ أَنْ تُسَيِّرَها ، بَدلاً مِنْ أَنْ تَسيرَ وِفْقَ قانونِها الدَّاخِلِيِّ الْقَويمِ . هذا النَّامُوسُ مَعْقُودٌ بينَ الْفِطْرَةِ وَخالِقِها) [1].

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ٣/٦٧٠-٦٧٤ .

لا شَكَّ أَنَّ الإنْسانَ مُكَوَّنٌ مِنْ جَسَدٍ وَرُوحٍ ، كَما أَنَّهُ يسْعَى لإشباعِ حاجاتِهِ الجِسْمِيَّةِ المادِّيَّةِ . ولِكَي يَعِيْشَ حياةً مُسْتَقِرَّةً آمِنَةً ، فَلا بُدَّ أَنْ يُشْبِعَ حاجَةَ الرُّوحِ أيضاً ، الَّتِي لا يُشْبِعُها إلاَّ الإيمانُ ، فَهُوَ وَحْدَهُ غِذاءُ الرُّوحِ .

هَذا وَقَدْ كَشَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، عنْ تلكَ الْفِطْرَةِ الأَصِيْلَةِ ، الَّتِي أَشارتْ إِليها الآيةُ الكريمةُ ، في تَكوينِ الإِنْسانِ .

فَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : قالَ النَّبِيُّ ﷺ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فأَبَواهُ يُهَوِّدانِهِ ، أَوْ يُنَصِّرانِهِ ، أَوْ يُمَجِّسانِهِ ، كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ ، تُنْتِجُ الْبَهِيمَةَ ، هَلْ تَرَى فيها جَدْعاءَ؟! »[1] .

وَيُحَذِّرُ الرَّسُولُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، مِنْ خَطَرِ انْحِرافِ الْفِطْرَةِ ، فيما يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، في الحَديثِ القُدُسِيِّ ، إِذْ يقولُ اللهُ تعالَى : « إِنِّي خَلَقْتُ عِبادِيَ حُنَفاءَ ، فَجاءَتْهُمُ الشَّياطِيْنُ ، فاجْتالَتْهُم عَنْ دِينِهِم ، وَحَرَّمَتْ عَلَيهِم ما أَحْلَلْتُ لَهُم »[2] .

يُدَلِّلُ مَضْمُونُ خَلْقَ العِبادِ حُنفاءَ ، في ضَوءِ الْحَدِيثِ القُدُسيِّ : بِأَنَّهُم مَفطورونَ خِلْقَةً ، علَى مَعْرِفَةِ ربِّهم ، والْمَيْلِ إِلَى رِضاهُ ، وَحُبِّ التَّقَرُّبِ إِليهِ . فَفِي النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ ، إِحْساسٌ قَوِيٌّ بِوجُودِ اللهِ تعالَى .

لكنَّ الإسلامَ أيضاً يكْفَلُ حُرِيَّةَ الْفَرْدِ فيما يَعْتَقِدُ ، لا ، لأَنَّ الاعتِقادَ والإيمانَ عَنْ إِكْراهٍ ، عديْمُ الْجَدْوى في آثارِهِ وَحَسْبُ ؛ ولكنْ لأَنَّ (الإكْراهَ علَى الإِيْمانِ قبلَ ذلكَ ، يَضادُّ طَبيعَةَ الحياةِ ، الَّتِي يَعِيْشُها الإِنسانُ علَى الأَرْضِ ، كما يَضادُّ

---

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه ، رقم الحديث « ٨٠/ ٩٣ » . ورواه الإمام مسلم في صحيحه ، برقم الحديث « ٢٢/ ٢٥ »، ورواه الإمام مالك في الموطأ ، رقم الحديث « ٥٢٥ » ، وكذلك رواه أبو داوود والترمذي بألفاظ وأسانيد متعددة .

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه ، رقم الحديث « ٥١٠٩ » ، ورواه الإمام أحمد في مسنده ، رقم الحديث « ١٦٨٣٧ » .

طبيعةَ الإنسان ذاتِها ، وطبيعةَ الحياةِ الإنسانيَّةِ علَى الأرْضِ ، كما أرادَها اللهُ تعالَى ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَهُ وتعالَى ، أرادَ لِهَذِهِ الحياةِ أنْ تكونَ مجالاً للصِّراعِ بينَ الْحَقِّ والباطِلِ ، إلَى أنْ تَنتَهِيَ وَتَتَحوَّلَ حياةُ الإنسانِ ، إلَى مَرْحَلَتِها الثَّانيَةِ ، وَهِيَ مَرْحَلَةُ الآخِرَةِ .

إنَّ الإنسانَ وُجِدَ علَى هَذِهِ الأرْضِ ، وَوُجِدَ مَعَهُ في الْوَقْتِ نَفْسِهِ عليها أمْرانِ آخَرانِ : وُجِدَتْ رِسالَةُ اللهِ تعالَى ، الَّتِي انْتَهَى أمْرُها مِنْ آدَمَ عليهِ السَّلامُ ، إلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ ، وَهِيَ تُمَثِّلُ الْحَقَّ أو الْهِدايَةِ . وَوُجِدَتْ كَذلِكَ : غِوايَةُ الشَّيطانِ ، وَهِيَ بإرادَةِ اللهِ تعالَى أيْضاً ، مُمَثِّلَةً للباطِلِ أوْ للضَّلالِ . وفي ذلكَ يقُولُ اللهُ تعالَى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ (الإسراء: ٦١-٦٣).

قَدْ أذِنَ اللهُ تعالَى إذْنَ لإبْليسَ - وَهُوَ مُمَثِّلٌ للباطِلِ والضَّلالِ - في مُباشَرَةِ غِوايَتِهِ ، وفِتْنَتِهِ النَّاسَ ، وَتَزْيينِهِ لَهُم الْمُنْحَرِفَ مِنَ السُّبُلِ ، كَما أرْجأَهُ في مُباشَرَةِ نَشاطِهِ الْهَدَّامِ ، إلَى يومِ القيامَةِ . . . أيْ إلَى بدءِ الْمَرْحَلَةِ الثَّانِيَةِ في حياةِ الإنسانِ ، وهِيَ حياةُ الآخِرَةِ .

وَوُجُودُ الْحَقِّ والباطِلِ مَعاً ، علَى هَذِهِ الأرْضِ ، إلَى وَقْتِ قِيامِ السَّاعَةِ ، يَفْرِضُ إذْنَ حُرِّيَّةَ الْفَرْدِ ، فيما يُؤْمِنُ بِهِ اليومَ وغَداً ، وَإلاَّ لَوْ آمَنَ النَّاسُ جميعاً بالْحَقِّ ، وَاتَّبَعُوا الْهِدايَةَ ، وأعْرَضُوا عَنِ الباطِلِ وَغِوايَةِ الشَّيطانِ ، وَجَبَ أنْ تَنْتَهِيَ حياةُ الإنسانِ علَى هَذِهِ الأرْضِ . إنْ يشأِ اللهُ إنْهاءَ هذا الصِّراعِ ، تَنْتَهِي الْحياةُ الأرْضِيَّةُ كُلُّها ، وهَذا ما تُعْطِيهِ الآيَةُ الكَريمَةُ في قَوْلِهِ تعالَى :

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (يونس:٩٩،١٠٠).

[اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ تعالَى ، كما تُشيرُ الآيةُ الكريمَةُ أَنْ : يكونَ الإيمانُ اختيارياً ، فلوْ كانَ إجباريًّا قَهْرِيّاً ؛ لكانَ لُزوماً] عندئذٍ أَنْ تنتهيَ الدُّنيا ، [ولكنَّهُ سُبحانَهُ وتعالَى] لَمْ يَشأْ [ذلكَ] . وإِذَنْ لا يزالُونَ مَخْتَلِفِينَ . [أي المقصودُ بالمُخْتَلِفِينَ : هُمُ النَّاسُ الموجودونَ في هذِهِ الأَرْضِ ، بينَ مؤْمِنٍ وكافرٍ أَوْ مُشْرِكٍ . ثُمَّ كُلٌّ مَرْهُونٌ بِحُرِيَّةِ اختيارِهِ ، ليبقى الصِّراعُ بينَ الحقِّ والباطِلِ مُستَمِراً ، وفي نِهايَةِ المطافِ : فإِنَّ كُلَّ نَفْسٍ ، سواءٌ في إيمانِها أَو في بقائِها على الرِّجْسِ والشِّرْكِ ، لا تستطيعُ أَنْ تَخْرُجَ ، مِنْ دائِرَةِ عِلْمِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالَى الْغَيْبِيِّ عَنها ، الأَزَلِيِّ . لكنَّ عِلْمَهُ غَيْرُ مُجْبِرٍ لأَحَدٍ ، في الاختيارِ] .

وأَيْضاً يَضادُّ الإِكْراهُ علَى الإيمانِ ، طَبيعَةَ الإِنسانِ الْخاصَّةَ ؛ لأَنَّ هَذِهِ الطَّبيعَةَ ، كُرِّمَتْ فِي خَلْقِها وتَصْويرِها ، مِنَ اللهِ تعالَى ، فَزَوَّدَها بِخَصِيصَةِ الإِدْراكِ والشُّعُورِ .

فيقولُ اللهُ تعالَى : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ (غافر:٦٤).

فإِدْراكُ الإِنْسانِ في حُكْمِهِ علَى ما يَرَى ، أَوْ يَسْمَعُ ، أَوْ يُفَكِّرُ ، يَقُومُ علَى التَّرْجيحِ بَيْنَ أَشْياءَ أَوْ أَطْرافٍ ، ويَخْتارُ ما يُرَجِّحُ لَدَيْهِ ، بأَنَّهُ أَصْوَبُ أَوْ أَحْسَنُ . هكذا يُشيرُ اللهُ تعالى ، إلى ذلك بقولِهِ سُبحانَهُ : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (الإنسان:٢).

فَلَو أُكْرِهَ الإِنسانُ علَى الإِيمانِ بِشيءٍ ما ، لَكانَ في هذا الإِكْراهِ ، مُصادَرَةٌ لِطَبيعَتِهِ ، في حُرِيَّةِ الاختيارِ ، ولَتَعارَضَ ذلكَ أَيضاً ، مَعَ الْخَصِيصَةِ والْمِيزَةِ ، الَّتِي حَباهُ بها اللهُ تعالَى ، في خَلْقِهِ وَتَصويرِهِ ، وَهِيَ مِيزَةُ الإِدْراكِ والتَّرْجِيحِ)[1].

---

(١) محمد البهي : الدين والدولة «من توجيه القرآن الكريم» ، ص ٣٣٧-٣٣٩.

يؤكِّدُ «البهيُّ» هُنا بوضُوحٍ مَنْهَجَهُ في الْعَقِيْدَةِ ، حَيْثُ يَعْتَبِرُ بادئَ ذي بدءٍ ، أنَّ اللهَ تعالَى ، منَحَ الإنسانَ حُرِّيَّةَ الاعْتِقادِ ، لِذا فإنَّ ظاهِرَةَ الاخْتِيارِ والمَشيئَةِ في الاعْتِقادِ والإيمانِ ، هِيَ ظاهِرَةٌ إلهيَّةٌ كَوْنِيَّةٌ ، وإنْسانِيَّةٌ طَبيعِيَّةٌ .

فإذا حاوَلَ إنْسانٌ مَا أنْ يَصُبَّ النَّاسَ جميعاً في قَالَبٍ واحِدٍ ، فَهُوَ أمْرٌ مُستَحيلٌ وقُوعُهُ ، بلْ يَدُلُّ علَى عَدَمِ استيعابِهِ ، للْخصائِصِ الْبَشَرِيَّةِ في طَبيعَةِ الْفَرْدِ ، وَعَدَمِ إدْراكِهِ فِي كيفيَّةِ تَغْيِيرِ الْمُجْتَمَعِ .

كما يُشِيرُ هذا الإنسانُ في مُحاولَتِهِ الفاشلَةِ تلكَ ، علَى إشْغالِ نَفْسِهِ والآخَرِينَ مِنَ النَّاسِ ، الذِّينَ هُم علَى شاكِلَتِهِ في التَّصَوُّرِ ، بِما لا جَدْوَى في وُقُوعِهِ أصْلاً .

لذلكَ فإنَّ مُعارَضَةَ أيَّ رَسُولٍ يُرْسَلُ ، في أيِّ عَهْدٍ مِنَ الأزْمِنَةِ ، جُزءٌ لا يَتَجَزَّأُ في طبيعَةِ الحياةِ البشَرِيَّةِ ، فلا غَرابَةَ في اختلافِ وُجُهاتِ النَّظَرِ ، حتَى في القضايا الإيمانيَّةِ ، لكنَّ العِبْرَةَ في النتائجِ ؛ لأنَّ : (الدُّنيا مُنْذُ نُزولِ آدَمَ عليهِ السَّلامُ إلَى الأرْضِ ، إلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ، هِيَ دارُ ابتلاءٍ واخْتِبارٍ للإيمانِ والْكُفْرِ معاً .

والشَّرُّ والْخَيْرُ موجودانِ مُقْتَرِنانِ فيها ، فَقَدِ اسْتَجابَ اللهُ تعالَى لإبْليسَ ، في مُمارَسَةِ إغْرائِهِ لأتْباعِهِ ، باتِّباعِ الهوَى والشَّهْوةِ ، دونَ الْعَقْلِ والْحِكْمَةِ ، طِوالَ الحياةِ الإنسانِيَّةِ علَى هَذِهِ الأرْضِ ، ولْنَذْكُرْ مُجْمَلَ قِصَّتِهِ : قالَ اللهُ تعالَى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (الإسراء: ٦١).

فَقَدْ شاءَ اللهُ تعالَى اخْتِبارَ الملائكَةِ في طاعَتِهِ ، كما شاءَ اختِبارَ الإنسانِ في شَخْصِ آدَمَ وحواءَ عليهما السَّلامُ ، في طاعَتِهِ كذلكَ ، والْمَلَكُ والإنسانُ : هُما وحْدُهُما اللَّذانِ اختُبِرا في طاعَةِ اللهِ تعالَى ، وليسَ هُناكَ مَوجُودٌ آخَرُ مَعَهُما . إذْ أرادَ اللهُ سُبحانَهُ وتعالَى امْتحانَهُما في طاعَتِهِ ، فاخْتَبَرَ الملائِكَةَ : [بأنْ] أمَرَهُم بالسُّجُودِ لآدَمَ عليهِ السَّلامُ ، . . . فَأطاعَ الملائكَةُ رَبَّهُم فيما أمَرَهُم به ، بينما

تَخَلَّفَ إبليسُ عَنِ السُّجُودِ ، مُبْدِياً أَنَّهُ لا يُمْكِنُ أَنْ يسجُدَ ، لِمَن هُوَ أَدْنَى مِنْهُ في الْخَلْقِ ، وَلَمْ يَتَذَكرْ أَنَّ اللهَ تعَالَى ، زَوَّدَ الإنسانَ بالْعَقْلِ [والْحِكْمَةِ ، وبذلكَ يكونُ قَدْ] كَرَّمَهُ على [جَميعِ] الْمَخْلُوقاتِ)[1].

بما أَنَّ اللهَ تعالَى تَركَ موضوعَ الإيمانِ والْكُفْرِ ، والعَمَلِ الصَّالِحِ والسَّيِّئِ ، للمَسْئُولِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ ؛ لذا يوحي هذا الأَمْرُ أَنَّ كُلَّ إنسانٍ مسئُولٌ عنْ نتائجِ إيمانِهِ وأَعْمالِهِ ، وهَذِهِ حقيقةٌ بارزَةٌ في القُرآنِ الكَريمِ ؛ لأنَّها قائِمَةٌ على الْحُرِّيَّةِ الكامِلَةِ ، في قَبُولِ الإيمانِ بالإسلام ، أَوْ في رَفْضِهِ ، يقولُ اللهُ تعالَى ، مُنَوِّهاً عَنْ ذلكَ :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (الكهف:٢٩).

يَنْصَحُ القُرآنُ الكريمُ رسولَ اللهِ ﷺ ، بأنْ يَقُولَ الحقَّ (الْمُوحَى بهِ مِنْ عندِ اللهِ تعالَى وحْدَهُ ، صَراحَةً وَعَلانِيَةً ، غَضِبَ النَّاسُ أَمْ رَضُوا ، وليسَ على رسُولِ اللهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، أَنْ يُلْزِمَ النَّاسَ بالإيمانِ بالْحَقِّ المُوحَى بهِ ، منْ عندِ اللهِ تعالَى .

وإنَّما أَمرُ الإيمانِ وأَمْرُ الْكُفْرِ بالرِّسالَةِ الإلهيَّةِ ، يعودُ إلى مشيئَةِ الْفَرْدِ وَحْدَهُ . لأَنَّ المشيئَةَ الفرديَّةَ هيَ وحْدُها العامِلُ الفاصِلُ ، عندَ الإيمانِ في تَحَوُّلِ الفردِ المؤْمِنِ مِنْ وَضْعِ الجاهليَّةِ والماديَّةِ ، إلى المُستوى الفاضلِ في الإنسانيَّةِ ، الَّذي تَدعُو إليهِ رسالةُ الإسلامِ .

فَإرادَةُ اللهِ تعالى للإيمانِ والكُفْرِ ، ليسَ إكراهاً للفرْدِ علَى الإيمانِ ، أو علَى الْكُفْرِ ، وإنَّما تَتَمَثَّلُ أكثرُ في التَّوجيهِ ، الَّذي يَتَضَمَّنُهُ كتابُ اللهِ تعالَى ، ويُبَلِّغُهُ

---

(١) محمد البهي : التفسير الموضوعي للقرآن الكريم «تفسير سورة الإسراء»، ص٥١ ، ٥٢ .

رسولُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ للنَّاسِ جَميعاً . وبِما أنَّـهُ للإنسانِ اختيارُهُ وإرادَتُهُ الحُرَّةُ في الإيمانِ والكُفرِ ، فيَتَحَمَّلُ هُوَ وَحْدَهُ عاقبةَ ما يختارُ . إذْ هُناكَ جزاءٌ في الدَّارِ الآخِرَةِ ، لِمَنْ يختارُ الكُفرَ ، [ألا وَهُوَ] النَّارُ تُحيطُ بِهِم ، لا يَسْتَطِيعُونَ الفِرارَ مِنْها ، كَما لا يَسْتَطِيعُونَ أنْ يُغاثُوا ، بِما يَسْبِقُهُم مِنْ حَرارَتِها ، إلاَّ بِما سيَزِيدُهُم أَلَماً في داخِلِهِم ، وتَشْوِيهاً في ظاهِرِهِم . فبِئْسَ ما يَسْتَغِيثُونَ بِهِ .

[وَهُناكَ جزاءٌ آخَرُ ، مِنَ الْجنَّاتِ والنَّعِيْمِ ، والإقامَةِ الدائِمَةِ] لِمَنْ يختارُ الإيمانَ [(١)]. فَإنَ المنْهَجَ العَقَديَّ الأصيلَ إذاً : هو الَّذي يقومُ علَى الالتِزامِ بِوَحِي اللهِ تعالَى ، والوقُوفِ مَعَ المؤْمِنينَ الْمُخْلِصِيْنَ في إيْمانِهِم ، والابْتِعادِ عَنِ اتِّباعِ هَوَى النُّفُوسِ ، وطُغيانِ الظُّلْمِ ، الَّذِي يَتَحَدَّى الْحَقَّ دائماً .

فَوَحْيُ رِسالَةِ الإسلامِ بالتأكيدِ ، يُمَثِّلُ إرادَةَ اللهِ تعالَى ، وهُوَ يَتَضَمَّنُ : طريقَ الإيْمانِ والإرْشادِ إليْهِ . أَمَّا الَّذِيْنَ يَختارُونَ : طريقَ الْكُفْرِ والإصْرارِ عليهِ ، فَهُم في الواقِعِ ظالِمُونَ لأنْفسِهِم ، مُعتَدُونَ علَى مبادئِ الْحَقِّ الإيمانيَّةِ ، الَّتِي مَنَحَتْهُم الإرادةَ والاختيارَ ، لكنَّهم أساءُوا حُرِّيَّةَ العقيدَةِ بالتَّحَدِّي أوّلاً ، ثُمَّ بالعِنادِ والاستمرارِ علَى الشِّرْكِ ثانياً .

إذْ ليسَ مِنَ الْمَعقُولِ ، كما أنَّهُ لا يُمْكِنُ أنْ يكونَ الإنْسانُ مَسْئُولاً عَنْ كُفْرِهِ ، إلاَّ إذا كانَتْ لَهُ مَشِيْئَةٌ فيهِ ، هذا مِنْ جِهَةٍ ، ثُمَّ أنَّ إعطاءَ الإنسانِ حُرِّيَّةَ اختيارِ العقيدَةِ ، دليلٌ على عَدْلِ اللهِ تعالَى الْمُطْلَقِ ، مِنْ جِهَةٍ أُخرَى .

فآياتُ اللهِ تعالَى ، الَّتِي تُظْهِرُ نِسْبَةَ الإيمانِ والْكُفْرِ ، إلَى اللهِ تعالَى ، تَسْتَهْدِفُ هَدَفَيْنِ : الهدَفُ الأوَّلُ : إنَّ مَشيئَةَ اللهِ تعالَى ، تُعَيِنُ الإنسانَ علَى الهِدايَةِ ، إذا أَقْبَلَ علَيْها ، أوْ عِنْدَما يُقْبِلُ عَلَيْها ، ولا تُعِينُهُ علَيْها إذا أَعْرَضَ عَنْها . [وفي النِّهايَةِ سيكونُ الجزاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ . وبذلكَ يَقُولُ اللهُ سُبْحانَهُ وتعالَى] :

---

(١) محمد البهي : التفسير الموضوعي للقرآن الكر يم «سورة الكهف» ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م ، ص ١٧ ، ١٨ .

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢٥-١٢٧).

فإرادَةُ اللهِ تعالَى ـ كما تُوضِّحُها الآياتُ الكريمَةُ ـ في إيْمانِ الْمُؤْمِنِ ، تَتَمَثَّلُ في مُعاوَنَتِهِ بِرِسالَتِهِ الإيمانيَّةِ الفطْرِيَّةِ ، مَعَ وُجُودِ إرادَتِهِ الْخاصَّةِ نَحْوَ الإيمانِ . وأمَّا إرادَةُ اللهِ تعالَى في بقاءِ الكافِرِ علَى كُفْرِهِ : فهيَ تَتَمَثَّلُ في عَدَمِ مُعاوَنَتِهِ بِهَذِهِ الرِّسالَةِ الجِبِلِّيَّةِ ، أيْ بِعَدَمِ الانتفاعِ بِها ، مَعَ وُجُودِ إرادَتِهِ الخاصَّةِ نَحْوَ الْكُفرِ .

لِذلكَ فالْمُؤْمِنُ بِإيْمانِهِ مُريدٌ ومسْئولٌ ، والكافِرُ أيْضاً مُريدٌ هُوَ لِكُفْرِهِ ، وبالتَّالي مسْئولٌ أمامَ اللهِ تعالَى . فالَّذِي تَتَّجِهُ فِطْرَتُهُ إلى الإسلامِ ، يَجِدُ في صَدْرِهِ انْشِراحاً ، هُوَ مِنْ صُنْعِ اللهِ تعالَى قَطْعاً . (فالانْشِراحُ حَدَثٌ لا يَقَعُ إلاَّ بِقَدَرٍ مِنَ اللهِ سُبحانَهُ وتعالَى ، يَخْلُقُهُ ويُبْرِزُهُ . والَّذِي تَتَّجِهُ فِطْرَتُهُ إلَى [الْكُفْرِ] والضَّلالِ : يَجِدُ في صَدْرِهِ ضِيقاً [وانْقِباضاً] وَعُسْراً . . . هُوَ مِنْ صُنْعِ اللهِ تعالَى قَطْعاً . . . لأنَّهُ حَدَثٌ لا يَتِمُّ وقُوعُهُ الْفِعْلِيُّ إلاَّ بِقَدَرٍ مِنَ اللهِ سُبْحانَهُ وتعالَى ، يَخْلُقُهُ ويُجْرِي بِهِ كَذلِكَ . . . وكِلاهُما مِنْ إرادَةِ اللهِ تعالَى بالْعَبْدِ . . . ولكِنَّها لَيْسَتْ إرادَةَ الْقَهْرِ ، إنَّما هِيَ الإرادَةُ الَّتِي أنْشَأَتِ السُّنَّةَ الْجارِيَةَ النَّافِذَةَ ، مِنْ أنْ يُبتَلَى هَذا الْخَلْقُ الْمُسَمَّى بالإنسانِ ، بِهَذا الْقَدَرِ مِنَ الإرادَةِ . وأنْ يَجْرِيَ قَدَرُ اللهِ تعالَى ، بِإنْشاءِ ما يَتَرَتَّبُ ، علَى اسْتِخْدامِهِ لِهَذا القَدَرِ مِنَ الإرادَةِ ، في الاتِّجاه إلَى الْهُدَى أوْ للضَّلالِ .

هذا هُوَ الصِّراطُ . . . هذهِ هِيَ سُنَّةُ اللهِ تعالَى ، في الْهُدَى والضَّلالِ . . . وَقَدْ فَصَّلَ اللهُ سُبحانَهُ وتعالَى آياتِهِ وَبَيَّنَها .

ولكنَّ الَّذِيْنَ يَتَذَكَّرُونَ ، ولا يَنْسَوْنَ ولا يَغْفَلُونَ ، هُمُ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ ، بِهَذا البيانِ وهذا التَّفصيلِ . فالْقَلْبُ الْمُؤْمِنُ : قَلْبٌ ذاكِرٌ لا يَغْفَلُ . وَقَلْبٌ مُنْشَرِحٌ مَبْسُوطٌ مَفْتُوحٌ . وَقَلبٌ حَيٌّ يَسْتَقْبِلُ وَيَسْتَجِيْبُ . والَّذِيْنَ يَتَذَكَّرُونَ ، لَهُم دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِم . . . دارُ الطُمأْنِيْنةِ والأَمانِ . . . مَضْمُونَةٌ عِنْدَ رَبِّهِم لا تَضِيْعُ ... وهُوَ وَلِيُّهُم وناصِرُهُم ، وراعِيْهِم ، وكافِلُهُم . . . ذلكَ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ . . . فَهُوَ الْجزاءُ علَى النَّجاحِ في الابْتِلاءِ . . . . إنَّها طَبِيعَةُ هذا الدِّيْنِ ، حَيْثُ يَتَمَثَّلُ صِراطُ اللهِ الْمُسْتَقِيْمُ ، في الْحاكِمِيَّةِ والشَّرِيْعَةِ ، ومِنْ ورائِهما . . . يَتَمَثَّلُ الإِيمانُ والعَقِيدَةُ ، [هِيَ طَبِيعَةُ الإِسلامِ] ، كَما يُقَرِّرُها رَبُّ العالَمِينَ)[1].

يُسْتَنْتَجُ مِنْ أهدافِ القُرآنِ الكريمِ إذاً ، في ظِلالِ الآياتِ الثَّلاثِ السّابِقَةِ ما يلي :

الهَدَفُ الأَوَّلُ : اللهُ تعالَى هُوَ وليُّ المؤمنينَ وناصرُهُم : أيْ مِنْ أهدافِ آياتِ القُرآنِ الكريمِ ، بالنسبةِ لِصِراطِ اللهِ تعالَى الْمُسْتَقِيمِ ، الَّذِي يُؤدِّي إلى الثِّقَةِ والطُّمأنِينَةِ : هُوَ وِلايَةُ اللهِ سُبحانَهُ وتعالَى ، [وَنُصْرَتُهُ وتأْيِيدُهُ] ، لِعِبادِهِ الَّذِيْنَ يَختارُونَ عقيدَةَ الإِيمانِ والتَّوحِيدِ . كما يَنْعَكِسُ أَثَرُ هذا النَّهْجِ الإِيمانيِّ : تعاوناً وتَقَدُّماً وإِصْلاحاً ، [بينَ المؤْمِنِيْنَ] في حياتِهِم الدُّنيَوِيَّةِ .

الهَدَفُ الثّانِي : إحاطَةُ الدّاعي والدَّعْوَةِ ، بِجَوِّ النَّجاحِ وَعَدَمِ الخِذْلانِ : وذلكَ بِإِبْعادِ أَنْ يكونَ الإِيمانُ . . . أَوْ عَدَمُ الإِيمانِ ، مِنْ مُسْتَتْبَعاتِ النَّشاطِ ، [أي بمعنَى : الإِخلاصُ للهِ تعالَى أوّلاً ، وعَدَمُ الرُّكونِ للنَّجاحِ والنَّصْرِ ، بسَبَبِ إيمانِ المؤمنِ وحدَهُ ، أَوْ بِسَبَبِ كُفْرِ الكافرِ وحْدَهُ ، ثانياً . بلْ لا بُدَّ مِنَ الأَخْذِ

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، مج٣ ، ٣٨١/٧-٣٨٣ .

بالأسبابِ ، والاسْتِعدادِ المادِّيِّ ، بالإضافَةِ للاستعدادِ المعنَويِّ اللازِمَيْنِ] في الدَّعْوَةِ والدَّاعِي إليها)[1].

لذلكَ ليسَ علَى الدَّاعِي إلاّ أنْ يَقُومَ بواجِبِهِ ، في شَرْحِ الدَّعْوَةِ ، وبَيانِ وَجْهِ التَّكْليفِ فيها ، وإيْضاحِ فوائِدِها ونتائِجِها ، والأعْباءِ والتَّكاليفِ المُتَرَتِّبَةِ علَى مَنْ يقومُ بِحَمْلِها وتَبْليغِها ، دونَ انتِظارٍ لِما تُسْفِرُ عَنْهُ ، نتائِجُها المادِّيَّةُ في دُنيا النَّاسِ ، بَلْ يَكِلُ النتائِجَ للهِ تعالَى وحْدَهُ ؛ لأنَّهُ هُوَ سُبحانَهُ وتعالَى صاحبُ الدَّعْوَةِ الحَقيقِيُّ ، الَّذِي يُكَلِّفُ الرُّسُلَ والمُؤْمِنينَ ، بِأمانَةِ حَمْلِها وتَبْليغِها ، كما يُعْتَمَدُ عليهِ سبحانَهُ وتعالَى وحْدَهُ في النَّجاحِ أخيراً . يقولُ اللهُ تعالَى :

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾

(الشورى: ١٥).

تَكْشِفُ هَذِهِ الآيةُ الكَريمَةُ ، عَنْ طبيعَةِ رِسالَةِ الإسلامِ ، فَهِيَ الخاتِمَةُ لِما قبْلَها مِنَ الرِّسالاتِ ، جاءَت لِتَمْضِيَ في طَرِيقِها ـ لا تَتَأثَّرُ بأهْواءِ الْبَشَرِ ـ وَلِتُهَيْمِنَ فَتُحَقِّقَ الْعَدالَةَ في الأرْضِ ، وَلِتُوَحِّدَ الطَّريقَ إلَى اللهِ تعالَى ، كَما هُوَ في حَقِيقَتِهِ مُوَحَّدٌ علَى مَدَى الرِّسالاتِ .

لِذا فإنَّ جَدَلَ الْمُجادِلِينَ في اللهِ سُبْحانَهُ وتعالَى ، مُسْتَنْكَرٌ لا يَسْتَحِقُّ الالتِفاتَ ؛ لأنَّ حُجَّتَهُم باطِلَةٌ فاشِلَةٌ ، لا وَزْنَ لها ولا حِساباً ، والأمْرُ في النِّهايَةِ ، مَوْكُولٌ كُلُّهُ للهِ تعالَى ، الَّذي سُبحانَهُ يَجْمَعُ بينَ الْخلائِقِ وإليهِ المصيرُ وحْدَهُ .

فالإكْراهُ على الاعْتِقادِ بأيَّةِ وسيلَةٍ ، مَهْما تَعَدَّدَتْ صُوَرُهُ ، فهُوَ مَعَ ذلكَ مُحاوَلَةٌ كَرِيهَةٌ ، لا إنسانِيَّةَ فيها .

---

(١) محمد البهي : نحو القرآن ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .

لكنَّهُ مِنَ الْملحوظِ ، أَنَّ تَقَدُّمَ الْمُجْتَمَعاتِ اليومَ في تطَبيقِ الْعِلْمِ المادِّيِّ التَّبْشيريِّ ، لا سيَّما في هَذا العَصْرِ الحَديثِ ، كانَ مَعَ الأَسَفِ الشَّديدِ ، سبيلاً إِلَى التَّوَسُّعِ (في صُوَرِ الإِكْراهِ علَى الإِيْمان ، بدلاً مِنَ الْقضاءِ عليهِ ، [أَيِ الإِكراهِ الإِيمانيِّ] ، مِمَّا يَدُلُّ علَى حاجَتِها ، [أَيِ الْمُجْتَمَعاتِ] لكَي تُحافِظَ علَى المُستوى الإِنسانِيِّ إِلَى الرُّوحِيَّةِ ، قبْلَ حاجَتِها إِلى الْعِلْمِ [الْمُجَرَّدِ] وَتَطْبيقِهِ .

والقُرآنُ العَظيمُ عِندما يُؤَكِّدُ حُرِّيَّةَ الْفَرْدِ ، في اعْتِقادِهِ بإِيْمانِهِ . . . إِنَّما يُريدُ أَنْ يُعَلِّمَ الأُمَمَ والشُّعُوبَ ، في قِيادَتِها وتَوْجِيهِها ، احْتِرامَ الإِنسانِ وتَكْريمِهِ ، كَما هُوَ مُكَرَّمٌ في طَبيعَتِهِ وَخَلْقِهِ ، واحْتِرامَ الْقِيادةِ والتَّوجيهِ ، بالْبقاءِ في دائِرَةِ الْمُمْكِنِ ، وَعَدَمَ تَجاوُزِهِ إِلى ما يصْطَدِمُ بالقوانِيْنِ الْفِطْرِيَّةِ والاجْتِماعِيَّةِ ، وَبِتِلْكَ الأُخْرَى الَّتِي تُنَظِّمُ ، الوجُودَ الأَرْضِيَّ للإِنسانِ .

إِنَّ إِرادَةَ اللهِ تعالَى في خَلْقِهِ ، تُفْلِحُ مَعَها [مُوائَمَةُ] الإِنسانِ لِنَفْسِهِ ، فإِذا [واءَمَ الْمَرءُ] نَفْسَهُ [مَعَ جِبِلَّةِ اللهِ تعالَى وإِرادَتِه في خَلْقِهِ] ، حَقَّقَ دَوْرَهُ الأَخْلاقِيَّ في حياتِهِ .

ولكِنْ لا يَنْجَحُ [الْمُتَصادِمُ مَعَ فِطْرَةِ نَفْسِهِ ، بأَيِّ حالٍ مِنَ الأَحْوالِ ، وفْقَ إِرادةِ اللهِ عَزَّ وجلَّ] . إِذْ مَنْ يَصْطَدِمُ مَعَها ، لا يَخْسَرُ الْمُحاوَلَةَ فَقطْ ، وإِنَّما يَرْتَكِبُ أَيضاً الإِثْمَ والْخَطأَ ، في القيامِ بها ثُمَّ في النِّهايَةِ ، يُحَطِّمُ نَفْسَهُ ، بَيْنَما تَبْقَى كَلِمَةُ اللهِ تعالَى ، هِيَ الْعُليا) [1].

والآنَ لَمْ يَبْقَ بَعْدَ الإِكْراهِ ، في الاعْتِقادِ إِلاَّ الإِقْناعُ بِهِ ، بالأُسْلُوبِ الإِنْسانِيِّ الْمُهَذَّبِ الْكَرِيمِ ، وَذلكَ ما يدْعو إِليهِ الإِسلامُ ، بقولِهِ سُبحانَهُ وتعالَى :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ

---

(١) محمد البهي : الدين والدولة «من توجيه القرآن الكريم» ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠.

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾

(النحل:١٢٥-١٢٨).

فإنَّ الدَّعْوَةَ إلَى سبيلِ اللهِ تعالَى وَدِينِهِ بِوَجْهٍ عامٍّ ، وبَيْنَ أَهْلِ الكتابِ بِوَجْهٍ خاصٍّ ، يَجِبُ أَنْ تأْخُذَ طَرِيقَ أَوْ مَنْهَجَ الْحِكْمَةِ والاعْتِدالِ ، ومَنْهَجَ أَوْ طَرِيقَ التَّوْجِيهِ النَّافِعِ الْمُثْمِرِ ، الَّذِي يَهْدِفُ إلَى مُخاطَبَةِ الْعَقْلِ والْقَلْبِ مَعاً .

أَمَّا إذا كانَ هُناكَ جَدَلٌ وأَخْذٌ وَرَدٌّ للإقْناعِ ، (فَيَنْبَغِي أَنْ يَسْلُكَ الْجَدَلُ [الْمَنْهَجَ] الْمُفَضَّلَ للإقْناعِ : [وهُوَ الطَّرِيقُ الْبَعِيدُ] عَنِ الإكْراهِ . إذْ لا جَدْوَى مِنَ الْحُمْقِ أَوِ الاصْطِدامِ في الْمُناقَشَةِ ، ولا جَدْوَى كَذلكَ مِنَ الإكْراهِ والْحَمْلِ بالعُنْفِ ، كَمَنْهَجٍ للإقْناعِ بالإيمانِ .

إنَّما طَرِيقُ [الإيمانِ والعقيدَةِ ، هُوَ] : الْمَشِيئَةُ الْفَرْدِيَّةُ ، . . . [إذا] تَحَرَّرَتْ مِنْ عَوامِلِ التَّأْثِيرِ [بأنواعِهِ الْمُخْتَلِفَةِ ، والضَّغْطِ] ، كَضَغْطِ التَّقالِيدِ والعاداتِ ، ونُفُوذِ الْكُبَراءِ والزُّعماءِ في الْمُجْتَمَعِ ، [الَّذِينَ يأْلَفُونَ الْمُعارَضَةَ والْمُخالَفَةَ] .

[فإنَّها بِكُلِّ سُهولَةٍ ويُسْرٍ] سَتَصِلُ إلَى الإيمانِ ، طالَما كانَ مَوْضُوعُهُ مَوْضُوعَ الإنْسانِيَّةِ ، في ذاتِها وَخَصائِصِها . . . وفي الْوَقْتِ نَفْسِهِ ، إنْ وَقَعَ عليكُم [أَيُّها الْمؤْمِنُونَ] اعْتِداءٌ ، أَوْ أَصابَكُم أَذًى مِنْ طَرَفِ الْمُشْرِكِينَ الْكِتابِيِّينَ ، وكانَتْ لَكُم طاقَةٌ عَلَى رَدِّ ما وَقَعَ عليْكُم ، فَلا تَتَجاوزُوا الْمُسْتَوَى الَّذِي لَحِقَ بِكُم ، مِنْ ضَرَرٍ أَوِ اعْتِداءٍ . . . . مَعَ إيْثارِ الصَّبْرِ والتَّحَمُّلِ ، عَلَى مُباشَرَةِ رَدِّ الْفِعْلِ . . . [لأَنَّ هَذا التَّصَرُّفَ الإنسانِيَّ] يَدُلُّ عَلَى إنْسانِيَّتِكُم ، الَّتِي تَدْعُونَ إلَيْها ، طِبْقاً لِما جاءَ في رِسالَةِ اللهِ تعالَى ، لِرَسولِهِ مُحَمَّدٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

هذانِ الْمبدآنِ ، وهُما : مَبْدأُ سُلوكِ الْحِكْمَةِ والاعْتِدالِ ، ومبدأُ عَدَمِ التَّجاوُزِ في رَدِّ الْعُدْوانِ : يَدُلاَّنِ دلالَةً واضِحَةً عَلَى أَخْلاقِيَّةِ الإسلامِ ، في علاقَةِ الْمؤْمِنِينَ

بهِ [مِنْ طَرَفٍ ، ثُمَّ في علاقَتِهم] بِمَنْ يُضْمِرُونَ لَهُمَ الْعِداءَ ، ولِدِيْنِهِم التَّصَدُّعَ والزَّوالَ ، [مِنْ طَرَفٍ آخَرَ] .

وَشَتَّانَ شَتَّانَ بينَ هَذِهِ الأخلاقِيَّةِ ، الَّتِي وَضَعَ أُسُسَها القُرآنُ الكريمُ ، مُنْذُ خَمْسَةَ عَشَرَ قَرْناً ، وما يَجْرِي اليومَ خاصَّةً بعدَ النِّصْفِ الثَّاني مِنَ القَرْنِ الْعِشْرينَ ، مِنْ دَعْوَةٍ إلى أيْديولوجِيَّةٍ - [ماديَّةٍ : غربيَّةٍ أو شرقيَّةٍ دخيلَةٍ ، على الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ] - مِنَ الأيديولوجِيّاتِ السائِدَةِ في هذا الْوَقْتِ الحالي : في أُسلوبِها ، أَوْ في حَمْلِ الناسِ بالإكْراهِ عليها . إذْ إنَّها لا تَتَجاوَزُ فقط ، حُدودَ الأخلاقِيَّةِ والشَّرْعِيَّةِ والإنسانِيَّةِ ، إلى الْحَيَوانِيَّةِ والتَّرَدِّي في حَضِيْضِها ، وإنَّما يُصَوِّرُ القَسْوَةَ والْوَحْشِيَّةَ ، الَّتِي يَخْتَرِعُ لها الْعِلْمُ والتَّطَوُّرُ الْحَضاريُّ [أَوِ المَدَنِيُّ الْمَزْعُومُ] ، آلاتٍ لَمْ تَأْلَفْها الْبَشَرِيَّةُ فيما مَضَى ، في أَيِّ عَهْدٍ مُظْلِمٍ ، اسْتَبَدَّ فيهِ الطُّغاةُ الْجَهَلَةُ .

ثُمَّ تدعو الآياتُ الرَّسولَ عليهِ الصَّلاةُ والسلامُ ، ومنْ مَعَهُ مِنَ المُسلمينَ ، ومَنْ سَيأْتُونَ بَعْدَهُ أَيْضاً ، بأَنْ يَلْتَزِمُوا جانِبَ الصَّبْرِ ، [ولا يَكْتَرِثُوا بالمؤامَراتِ والمكائِدِ] ، العَلَنِيَّةِ والْخَفِيَّةِ - ضِدَّ رِسالَةِ الإيمانِ والعقيدَةِ - لأَنَّهُما أَمْرانِ مُتَوَقَّعانِ ، فإذا انتهى نوعٌ مِنَ الْمُعارَضَةِ والمكيْدَةِ اليومَ ، فإنَّهُ يُتَوَقَّعُ نوعٌ آخرَ منها غَداً ، أو بعدَ غَدٍ . . . وهَكَذا .

لِذا فالصَّبْرُ خيرُ طَريقٍ لِعلاجِ ذلكَ ، حَتَّى يَتِمَّ نَصْرُ اللهِ تعالَى ، فَهُوَ سُبحانَهُ وتعالَى يَعِدُ بتأْييدِ الْمُتَّقِيْنَ ، الَّذِيْنَ يَتَجَنَّبُونَ الْفَحْشاءَ والْمُنْكَرَ ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُم في سُلُوكِهِم ، وَفي مَواقِفِهِم)[1] .

مَنَعَ الإسلامُ حقيقةً الإكْراهَ في دُخُولِ العقيدَةِ ، ثُمَّ اتَّجَهَ إلى مبادئِ الْحِكْمَةِ والرَّوِيَّةِ ، وأَنْ يَتَجَنَّبَ المؤمنونَ مُباشَرَةَ الاعْتِداءِ . إذِ البَوْنُ شاسِعٌ بينَ مُباشَرةِ

---

(١) محمد البهي : التفسير الموضوعي للقرآن الكريم «تفسير سورة النّحل» ، ص ٨٩-٩١ .

العُدوان ، ومُباشَرَةِ رَدِّهِ ؛ لأنَّ ردَّ العُدوان أَمْرٌ مَشْرُوعٌ ، فهُوَ دِفاعٌ عَنِ النَّفْسِ ، أَوِ الْعِرْضِ ، أَوِ الدِّيارِ والْمُمْتَلَكاتِ ، أَمَّا مُباشَرَةُ الاعْتداءِ : فإنَّهُ أَمْرٌ بَغِيْضٌ قَبيحٌ ؛ لأنَّهُ يَبْتَعِدُ بالإنسانِيَّةِ ، في أَخَصِّ مَظاهِرِها وأَنْبَلِها ، إلى الحَيَوانِيَّةِ ومِكائِدِها .

يَتَضِحُ مِمَّا سَبَقَ ، بأَنَّ الإيمانَ أَوِ العَقيدَةَ ، يَقُومُ كُلٌّ مِنْهُما بِنَفْسِ الإنسانِ ، وَيَعْملانِ على تَوْجِيْهِ سُلُوكِهِ ، والتَّحَكُّمِ في تَصَرُّفاتِهِ . فالْعَقيدةُ عَمَلٌ مِنْ أَعْمالِ الإرادَةِ ، وَثَمَرَةٌ مِنْ ثِمارِ الْمَجْهُودِ الْعَقْلِيِّ :(فَهِيَ لِهَذا مُكْتَسَبَةٌ ، [وإنَّ مِنْ شأنِها ، بأَنَّها :] تُشْغِلُ نَفْسَ الإنسانِ ، [بمَصيرِ حياتِها] بعدَ أَنْ كانتْ خُلُوًّا مِنْها . أَوْ تَحْتَلَّ انْتِباهَهُ بَعْدَ أَن كانَ غافِلاً عَنْها ، وَلَيْسَتْ مِنْ قَبيلِ الْمعاني الْمَوْروثَةِ ، والْحقائِقِ الَّتِي تُلْقَى في نُفوسِنا ، وَتُقْذَفُ في قُلُوبِنا على غَيْرِ اخْتيارٍ مِنَّا .

وَمَعَ ذلكَ فإنَّ الإنسانَ مَطْبُوعٌ ، على أَنْ يَعْتَقِدَ ، وَمُهَيأٌ لَقَبُولِ مُعْتَقَدٍ ، وَقَدْ غُرِسَتْ في جِبِلَّتِهِ اسْتِعْداداتٌ ، تَجْعَلُهُ صالِحاً لأَنْ يَعْتَقِدَ ، وَمَيَّالاً بِطَبْعِهِ لِذلكَ .

ولكنَّ ذلكَ في الواقعِ لا يَتنافَى ، مَعَ كَسيبَةِ [اكْتِسابِ] الاعتقادِ ، [وكذلكَ] معَ [إمْكانيَّةِ] قَبولِهِ للتَّكَيُّفِ بِكَيْفِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وأَوضاعَ مُعَيَّنَةٍ ، ووقُوعِهِ تحتَ تأثيرِ عوامِلَ مُتَعَدِّدَةٍ ، وإنْ تصارَعَت فيما بينَها أَحياناً ، [إلاَّ أَنَّها] قَدَ تَضطلِعُ وتَتَضافَرُ على تكوينِ مُعْتَقَدٍ مُعَيَّنٍ .

وسواءٌ كانتِ الْعَقِيْدَةُ أصلاً للأخلاقِ ، وَمَصْدراً للسُّلوكِ الإنسانِيِّ ، أَوْ مُتَفَرِّعَةً منها ، وَمُتَرَتِّبَةً عليْها ، [فإنَّ الشيءَ الْمُهِمَّ] إنَّما : هُوَ هَذا الرِّباطُ الوثيقُ ، الَّذِي يَصِلُ الأَخْلاقَ بالْعَقِيْدَةِ ، ويُؤَكِّدُ الصِّلَةَ الْقَوِيَّةَ بَيْنَهُما ، على نَحْوٍ يَجْعَلُ انْفِصالَ الْعَقِيْدَةِ عَنِ الأَخْلاقِ ، واسْتِقلالِها بِذاتِها أمراً مُسْتحيلاً أَوْ عسيراً ، أَوْ على الأَقَلِّ مَشْكُوكاً فيهِ .

مِنْ أَجْلِ ذلكَ شاعَ بينَ مؤرِّخي الْفِكْرِ الإنسانِيِّ عامَّةً ، وَمُؤَرِّخِي الجانِبِ الْفلسَفِيِّ منهُ خاصَّةً ، مَبْدأٌ مَنْهَجِيٌّ يُصَوِّرُ لنا الصِّلَةَ الْوَثِيْقَةَ ، بيْنَ الْعَقيدَةِ

والسُّلُوكِ ، وَيَجْعَلُ مِنَ الأُولَى أَصْلاً وقاعِدَةً للثّانِي ، كَما يَجْعَلُ مِنَ الثّاني أَثَراً وانْطِباعاً عَنِ الأُولَى .

وأَمَّا الإنسانُ : بِما اكْتَمَلَ فيهِ مِنْ مَلَكاتٍ ، وبِما [زَوَّدَهُ اللهُ تعالى] بِهِ مِنْ طاقاتٍ ، وبِما تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ كُلِّ مُقَوِّماتِ الشَّخْصِيَّةِ الْمُدْرِكَةِ الْواعِيَةِ ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسيرَ في طريقِ التَّقَدُّمِ ، مُسْتَخْدِماً طاقاتِهِ ، ومَلَكاتِهِ ، ومواهِبَهُ ، في تَرْقِيَةِ حياتِهِ ، وَتَنْمِيَةِ معارِفِهِ ، وتَحْقيقِ وجُودٍ أَفْضَلَ ، وَطَلَبِ الْمَزيدِ مِنْ ذلكَ ، كُلَّما أَمْكَنَهُ ، وكُلَّما أُتِيحَتِ الْفُرْصَةُ للاسْتِزادَةِ مِنْهُ ، سَعْياً لِما هُوَ أَفْضَلُ ، وطَلَباً لِما هُوَ أَحْسَنُ . [هَذا هُوَ مَنْهَجُ الإسلامِ ، وَجَوْهَرُ عَقِيدَتِهِ] مِنْ تَقَدُّمِ الْجماعَةِ الإنسانيَّةِ وَتَطَوُّرِها ، [ودَوْرِهِما] في تَرْقِيَةِ الْحياةِ والسَّعْيِ بِها دائِماً إِلَى الأَفْضَلِ وَالأَكْمَلِ)[1].

لكنَّ النَّاسَ الَّذِينَ يَحُوِّلونَ فِطَرَهُم الإيمانِيَّةَ ، إِلَى أَوْهامٍ مَدْسُوسَةٍ ، وعَقائِدَ زائِفَةٍ ، بِحَيْثُ تُثيرُ شَهَواتِهم وَنَزَواتِهم المادِّيَّةِ ، ليسَ غَيْرَ ذلكَ .

فإنَّ هذا التَّحَوُّلَ يَنْشأُ غالباً : مِنْ فَشَلِ بَعْضِ الأفرادِ والجماعاتِ ، في فَهْمِ مَرْكَزِ الإنسانِ ، وَوَظِيفَتِهِ في الكَونِ ، وَمِنْ إِخْفاقِهِم كذلكَ في تَحْديدِ أَهْدافِهِم ومَنْهَجِهِم ، مِنَ الحياةِ نَفْسِها ، وفي عَدَمِ تَصَوُّرِهِم للقِيَمِ وأَهميَّتِها ، وَعَجْزِهِم أيضاً عَنْ إِدْراكِ آثارِها ، النَّابِعَةِ مِنَ الرَّوابِطِ الإنسانيَّةِ .

لكنْ مِنَ المُشاهَدِ ، أَنَّ الإنسانَ الَّذِي يُغالِطُ فِطْرَتَهُ الإيمانيَّةَ ، فإنَّهُ تَحْتَ ضَغْطِ حاجاتِهِ اليوميَّةِ الْمُلِحَّةِ ، وَضَرُوراتِ حَياتِهِ المادِّيَّةِ ، ثُمَّ نتيجَةَ مُقَوِّماتِ وجُودِهِ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ .

لِذا انْدَفَعَ إِلى التَّفاعُلِ بِقُوَّةٍ مَعَ هَذِهِ الْمادَّةِ ، وبالَغَ في ذلكَ وأَسْرَفَ ، حتَّى عَطَّلَ تَصَوُّرَهُ عَمَّا سِواها مِنْ وُجُودٍ .

---

(١) محمد عبد الرحمن بيصار : العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع ، ص٥١-٥٣ .

ونَأى بِعَقْلِهِ عَنِ الْقِيَمِ الرُّوحِيَّةِ ، والْمُثُلِ الإنسانيَّةِ ، والْمبادئِ الأَخْلاقِيَّةِ ، وعِنْدَئِذٍ جَحَدَ كُلَّ شيءٍ ، ما عدا الْمَحْسُوسَ مِنْ مُوجُوداتٍ ، فيكونُ بذلِكَ قَدْ غالَطَ نَفْسَهُ ، وخالَفَ طَبيعَتَهُ وفِطْرَتَهُ ، وَفَقَدَ منهجَهُ وَقيمَتَهُ الْفِطْرِيَّةَ .

أمَّا المؤْمِنُ باللهِ تعالَى ، فَقَدَ فَقَهَ مَنْهَجَهُ في الْحَيَوانِ ، « أي الدُّنيا والآخرةِ » ، فَعَلِمَ بأنَّهُ مسئولٌ عَنْ إيمانِهِ ، كما هُوَ مسئولٌ عَنْ حياتِهِ (وربَّما تكونُ مسئوليَّتُهُ ، إزاءَ الإيمانِ أَقْوى مِنْ مَسئوليَّتِهِ أمامَ نَفْسِهِ ؛ لأنَّ الْمَفْرُوضَ في الْمُؤْمِنِ أَنْ يُجاهِدَ ، في سبيلِ اللهِ تعالَى ، بِمالِهِ ، ونَفْسِهِ ، وَوَلَدِهِ . ومَعْنَى ذلكَ : أَنَّهُ يَجِبُ [علَى المؤْمِنِ] أَنْ يُؤْثِرَ الدَّعْوَةَ ـ لِدِيْنِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالَى ـ قائِمَةً عَزِيْزَةَ الْجانِبِ ، علَى نَفْسِهِ وعلَى كُلِّ ما لَهُ أَوْ يَمْلِكُ في هَذِهِ الْحَياةِ الدُّنيا .

فإنْ تَعَرَّضَ إيْمانُهُ باللهِ تعالَى لأَزَمَةٍ [مِنَ الأَزَماتِ ، سواءٌ في نَفْسِهِ ، أَوْ في الْمُجْتَمَعِ الَّذِي] يَعيشُ فيهِ ، فَإِنَّهُ لا يَدَعُ نَفْسَهُ تُغْلَبُ علَى أَمْرِها ، ولا علَى ما يُصاحِبُها مِنْ إيمانٍ ، بَلْ يَجِبُ عليهِ أَنْ يَسْعَى ، لِيَنْجُوَ بِإيْمانِهِ ، مِنْ أَنْ تنالَ هَذِهِ الأَزَمَةُ مِنْهُ .

إذِ الدَّعْوَةُ في سبيلِ اللهِ سبحانَهُ وتعالَى ، لَيْستْ لِكَسْبِ مؤْمِنِينَ جُدَدٍ ، بِقَدْرِ ما هِيَ تَثْبيتٌ لإيمانِ الْمُؤْمِنِينَ باللهِ تعالَى ، في مُواجَهَةِ الشدائدِ والأَزَماتِ . يقولُ اللهُ تعالَى :

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ۝ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (العنكبوت:٥٦،٥٧).

فالقرآنُ الكريمُ يَدْعُو الْمُؤْمِنَ لِيُحافِظَ علَى دِينِهِ ، ولَو كانتِ الْهِجْرَةُ مِنَ الدِّيارِ سبيلاً لِذلِكَ . كَما يَنْبغي عليهِ أَنْ يُؤْثِرَ الْهِجْرَةَ بِإيْمانِهِ ، علَى تَشَبُّثِهِ بالإقامَةِ في مكانٍ مُعَيَّنٍ ، قَدْ يُضْعِفُ إيمانَهُ باللهِ تعالَى ، أَوْ يُعَرِّضُهُ لِشِدَّةٍ تُصِيْبُ مِنْهُ .

وَمَنْطِقُ القُرآنِ الكَريمِ في هَذا هُوَ : أَنَّ الأَرْضَ كُلَّها للهِ سُبْحانَهُ وتعالَى ، وأنَّها واسِعَةٌ لا تَضِيقُ بِمؤْمِنٍ . وَفَوْقَ ذلكَ : [فإنَّ كُلَّ] نَفْسٍ لا بُدَّ أَنْ تَموتَ ،

في هَذا المكان مِنْ أرْضِ اللهِ تعالَى ، أوْ في ذاكَ ، فليسَ هُناكَ مكانُ خُلُودٍ علَى هَذِهِ الأرْضِ ، يُمْكِنُ أنْ تَتَمَسَّكَ بالبَقاءِ فيهِ ، طَلَباً للنَّجاةِ علَ حِسابِ إيمانِها باللهِ سُبحانَهُ وتعالَى . ثُمَّ أخيْراً لَيسَتِ المَرْحَلَةَ الأُولى ، أوِ الأخيرَةَ في حياةِ الإنسان ، مِنْ أجْلِ ذلكَ فهيَ لا تَستَحِقُّ الحِرْصَ عليها . وإنَّما بَعْدَها حياةٌ أُخرى أبَدِيَّةٌ ، يَعِيْشُها الإنسانُ ، إمَّا عِيشَةً هانِئَةً مُتْرَفَةً ، أوْ عِيْشَةً مَمْلُوءَةً بالعَذابِ والشَّقاءِ . والعَمَلُ لِهَذِهِ أوْ لِتِلْكَ ، هُوَ الإيمانُ باللهِ تعالَى ، والعَمَلُ القائِمُ عليْهِ طِوالَ المَرْحَلَةِ الأُولَى في حياةِ الإنسانِ ، لِمَنْ يُريدُ النَّعيمَ . أَوْ أنْ يَتَحَدَّى [المارقُ الماجِنُ] هذا الإيمانَ ، بالانْحِرافِ عَنِ اسْتِقامَةِ العَمَلِ [الإيْمانِيِّ] ، لِمَنْ لا [يَهْتَمُّ بشأنِ] الآخِرَةِ ، فيكونُ جزاؤُهُ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِ ، ألا وهُوَ الجَحيمُ»[1].

يكْشِفُ هُنا «البهيُّ» مَنْهَجَهُ الإيمانيَّ ، بِجَلاءٍ وَوُضُوحٍ ، لا لَبْسَ فيهِ ولا غُمُوضٍ ، إنَّهُ تَوَجُّهٌ ربَّانيٌّ أُخْرَوِيٌّ .

فإذا ما تَعَرَّضَ المؤْمِنُ إلى أعْباءَ جَمَّةٍ ، وتكاليفَ مادِّيَّةٍ أَوْ أدَبِيَّةٍ ، بِسَبَبِ إيْمانِهِ ، وثَباتِهِ علَى عَقِيْدَتِهِ . فإنَّ تلكَ الشَّدائِدَ ، لا تَلْبَثُ أنْ تَزُولَ حَتْماً ، بعدَ ذلكَ ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى وَعَدَ بِهَذا . والمَوْعُودُ مِنَ اللهِ سُبحانَهُ وتعالَى ، مقبُوضٌ لا مَحالَةَ في ذلكَ . حَيْثُ يقُولُ اللهُ سُبحانَهُ وتعالَى ، في مُحْكَمِ التَّنْزِيْلِ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (المجادلة: ٢٠، ٢١).

فالإيمانُ باللهِ تعالَى ، هُوَ مَصْدَرُ قُوَّةٍ وهِدايَةٍ ، ومَنْهَجُ توجيهٍ حَقيقيٌّ للإنسانِ ، وأمّا الَّذينَ يُعادونَ المؤمِنِينَ ، ويُحادُّونَ اللهَ تعالَى ، فَمَصيرُهُم إلَى التَّرَدِّي والانْحِطاطِ .

---

(١) محمد البهي : الدين والدولة «من توجيه القرآن الكريم» ، ص ٢٤٧ .

(فالَّذينَ يُحادُّونَ اللهَ ورسولَهُ ، هُمُ الَّذِيْنَ يَهْزءُونَ بالقِيَمِ والمَبادِئِ الدِّينِيَّةِ ، وَيَتَحدَّونَ الإيمانَ باللهِ سُبحانَهُ وتعالَى ، كَمَصْدَرِ هِدايَةٍ وتَوجيهٍ سليمٍ للإنسانِ ، بإبْعادِ هذا الإيمانِ مِنْ حياةِ الإنسانِ ، والْحُكْمِ عليهِ بالْعُزْلَةِ ، عَنْ أيِّ رافِدٍ مِنْ روافِدِ التَّنْويرِ والتَّبْصِيْرِ في الْمُجْتَمَعِ ، وقد يكونُ ذلكَ بِمُحاوَلَةِ إيْجادِ قِيَمٍ أُخرَى ، تُنَظِّمُ حياةَ الإنْسانِ وَسُلُوكَهُ ، بَدَلاً مِنْهُ ، صَنَعَها الإنْسانُ واخْتارَها ؛ لِتَمْكِيْنِ شأنِهِ علَى الأرْضِ . إلاَّ أنَّها ستَبقَى عاجزَةً ناقِصَةً ، تُدْرِكَ شيئاً وتَغْفَلُ أشياءَ كثيرَةً ، فيكونُ مآلُها إلى إكْسابِ أصحابِها الذُّلَّ والهَوانَ . وقدْ أكَّدَ اللهُ سُبحانَهُ وتعالَى ذلكَ ، إذْ وردَ في الآيةِ السَّابِقَةِ ، كما يلي :

أوَّلاً : إنَّهُم سَيَصِيْرُونَ إلَى الذُّلِّ والْهَوانِ حَتْماً ، في نِهايَةِ الْمَطافِ .

ثانياً : إنَّ عاقِبَتَهُم الَّتِي لا مَفَرَّ مِنها ، هِيَ الْهَزيْمَةُ ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى بِقُوَّتِهِ وَعِزَّتِهِ ، هُوَ الَّذِي سَيُواجِهُهُم في تَحَدِّيْهِم .

وإذا نَجا المؤْمِنُ بإيْمانِهِ ، ولَوْ بالْهِجْرَةِ في أرْضِ اللهِ تعالَى الواسِعَةِ ، فإنَّهُ يكونُ قَدْ كَرَّمَ نَفْسَهُ كإنْسانٍ ؛ لأنَّهُ لا يُفَرِّطُ عِنْدَئِذٍ فيما أُتمِنَ عليهِ ، وَهُوَ إيْمانُهُ)[1].

فالمؤْمِنُ عَزيزُ الجانِبِ ؛ لأنَّهُ يَتَّجِهُ إلَى اللهِ تعالَى في مَنْهَجِهِ ، الَّذي فيهِ مَصْدَرُ الإدْراكِ والسُّمُوِّ ، فَهُوَ يُحافِظُ علَى إنْسانِيَّتِهِ ، بِمُقْتَضَى عَقيدَتِهِ وإيْمانِهِ . كما أنَّهُ سَيُشارِكُ في عِزَّةِ الإيمانِ ، وذلكَ بِتأْييدِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالَى لَهُ .

والإنسانُ الَّذي يَعِيْشُ لِدينِهِ ، تَهُونُ عليهِ الشَّدائِدُ والأزَماتُ ، الَّتِي تقومُ بوجْهِهِ قَصْداً بِسَبَبِ إيمانِهِ ، ثُمَّ يَصْبِرُ عليها ، وَيُحاوِلُ إنْقاذَ هذا الإيمان ولو بالْهِجْرَةِ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ .

---

(١) محمد البهي : الدين والدولة «من توجيه القرآن الكريم» ، ص٢٤٨ .

ثُمَّ سوفَ يَعْتَزُّ بِنَفْسِهِ ، بِما قامَ بِهِ في سبيلِ أَعَزِّ شَيءٍ لدَيْهِ ، أَلا وهُوَ إِسْلامُهُ ودينُهُ ؛ لأَنَّ الإِيمانَ مَنْهَجُ الْهِدايَةِ ، وَهُوَ أَمَلُ السَّلامَةِ في الْحياةِ لِمَنْ وعاها وعَرَفَها ، كما ينْبَغِي أَنْ تَكُونَ .

عَقِيْدَةُ الإِسْلامِ إِذاً هِيَ عَقيْدَةُ التَّسلِيْمِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ ، في كُلِّ الأُمورِ ، مَعَ مَعْرِفَةِ الْمَنْهَجِ الْقَوِيْمِ ، وهُوَ الإِيمانُ الَّذي يُوصِلُ صاحِبَهُ إِلَى ما فيهِ سعادَتُهُ في الدُّنيا ، الَّتي هِيَ دارُ اخْتِبارٍ . ثُمَّ نَجاتُهُ وخَلاصُهُ في الآخِرَةِ ، إِذْ هِيَ دارُ القَرارِ والاسْتِقْرارِ النِّهائِيِّ ، يَوْمَ الْعَرْضِ علَى الواحِدِ الْجَبَّارِ الْقَهَّارِ .

فالمُؤْمِنُ صاحِبُ الْعَقِيْدَةِ ، يَنْأَى بِنَفْسِهِ عَنِ الرَّذِيْلَةِ والْفَسادِ ؛ لأَنَّهُ يَنْهَجُ الطَّرِيقَ المُسْتَقِيْمَ ، الَّذِيْ يَقُودُهُ إِلَى بَرِّ السَّلامَةِ والأَمانِ ، والسَّدادِ والإِصْلاحِ ، إِنَّهُ منْهَجُ عَقِيْدَةِ الإِيْمانِ بِوحْدانِيَّةِ اللهِ تعالَى .

* * *

المَبْحَثُ الثّاني

منهَجُهُ في التَّفسيرِ

كانَ «البهيُّ» مِنْ أوائِلِ مَنْ دَوَّنَ في التَّفسيرِ الموضُوعِيِّ للقُرآنِ الكَريمِ ، وأُطلِقَ علَى هَذا المَنْهَجِ ، فيما بَعْد ، مَدْرَسَةُ الوِحْدَةِ المَوْضُوعِيَّةِ في القُرآنِ الكريمِ ، حَيْثُ كانَ لَهُ مَنْهَجُهُ الخاصُّ ، الَّذي خَرَجَ بِهِ عَنْ إطارِ التَّفاسيرِ التَّقْلِيْدِيَّةِ ، شَكْلاً وَمَوْضُوعاً .

فيكُونُ بِذَلِكَ قَدْ قَدَّمَ رؤًى جَدِيْدَةً ، لآياتِ كِتابِ اللهِ تعالَى الكريمِ ، كذلكَ أَبْرَزَ فيها تَصْحيحاً لِكثيرٍ مِنَ الأفكارِ ، والسُّلُوكِيَّاتِ العامَّةِ والخاصَّةِ ، وبَعْضِ المفاهيمِ الشَّائِعَةِ ، والعاداتِ والتَّقاليدِ السائِدَةِ ، مِنْ مُنْطَلَقِ الفَهْمِ الصَّحيحِ لِلقرآنِ العَظيمِ . فَأَعْطَى جُلَّ اهتِمامِهِ للفِكْرِ ، في مَجالِ العَمَلِ والتَّطْبيقِ .

لَمْ يَحْرِصْ في تَفْسيرِهِ ، علَى تَرْتِيْبِ السُّوَرِ ، كما هوَ الحالُ في التَّفاسيرِ التَّقْلِيْدِيَّةِ . إِنَّما بدأَ بالسُّوَرِ المَكِّيَّةِ : مِنْ مُنْطَلَقِ أَنَّ القُرآنَ المَكِيَّ ، يُمَثِّلُ عقيدَةَ المُسلمِ .

ثُمَّ احْتَفَظَ في مَنْهَجِهِ التَّفْسيريِّ ـ للقرآنِ المَجِيْدِ ـ بِتَقْسيمِهِ إلى : مَكِّيٍّ ومَدَنِيٍّ ، وجَعَلَ عُنوانَ القُرآنِ المَكِّيِّ في تفسيرِهِ : القُرآنُ في مُواجَهَةِ المادِّيَّةِ .

وكانَ في تَخْطيطِهِ ، بَعْدَ الانتهاءِ مِنَ التَّفسيرِ المَكِّيِّ . أَنْ يَجْعَلَ تَفسيرَ القُرآنِ المَدَنِيِّ ، في قِسْمَيْنِ ، هُما : **الأَوَّلُ** : القُرآنُ في بناءِ المُجْتَمَعِ . **الثَّاني** : القُرآنُ في تَنْظِيْمِ المُجتَمَعِ . لكِنَّ المَنِيَّةَ حالَتْ بينَهُ وبيْنَ مَشْرُوعِهِ ، في تَفْسيرِهِ للقُرآنِ المَدَنِيِّ . أَمَّا تَفْسِيْرُهُ الموضوعِيُّ للقُرآنِ الكريمِ المَكِّيِّ : فإِنَّ مَنْهَجَهُ احتَوَى الأساليبَ الأَربَعَةَ التَّالِيَةَ :

أولاً : اسْتِخْلاصُ مَضْمُونِ الْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ ، كَكُلٍّ ، في نَظْرَةٍ موضوعِيَّةٍ شامِلَةٍ .

ثانياً : اسْتِخْلاصُ مَوْضُوعٍ مُحَدَّدٍ بِعَيْنِهِ ، كَمَنْهَجِ القُرآنِ في تَطْوِيرِ الْمُجْتَمَعِ .

ثالِثاً : اسْتِخْلاصُ مَوْقِفِ الْقُرآنِ الكريمِ مِنَ الْمادِّيَّةِ .

رابِعاً : اسْتِخْلاصُ هَدَفِ السُّورَةِ الواحِدَةِ ، وما عُنِيَتْ بِإِبْرازِهِ ، في إِطارِ السُّورَةِ كُلِّها .

أَمَّا هَدَفُ القُرآنِ الكريمِ ، كَكُلٍّ ، أَوْ جُمْلَةٍ واحِدَةٍ ، حَسَبَ مَنْهَجِ «البهيِّ» في التَّفسيرِ الْمَوضُوعِيِّ ، فَقَدْ : ضَمَّنَهُ الأَهْدافَ الثَّلاثَةَ التَّاليَةَ :

الْهَدَفُ الأَوَّلُ : (مُقاوَمَةُ الشِّرْكِ الْمادِّيِّ . . . أَوِ الْوَثَنِيَّةِ المادِّيَّةِ : يَظْهَرُ هَذا الاتِّجاهُ [في منهجِهِ] بوضُوحٍ ، [مِنْ خِلالِ تناوُلِهِ : تَفْسيرَ] السُّوَرِ والآياتِ الْمَكِّيَّةِ .

ثُمَّ يَشْرَعُ في مُقاوَمَتِهِ لِلْوَثَنِيَّةِ المادِّيَّةِ ، خاصَّةً فيما تَظْهَرُ فيهِ مِنْ ظَواهِرَ [عَدَمِيَّةٍ مَقيتةٍ] . . . أَوْ فيما تُوَجِّهُهُ مِنِ اتِّهاماتٍ لِلقُرآنِ الكَريمِ ، وَإِلَى الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ . . . أَوْ فيما تَصِفُ بِهِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْ تَتَصَوَّرُهُ [وفْقَ سُوءِ ظَنِّها] مِنْ صِفاتٍ لَهُ ، [لا تَتَناسَبُ مَعَ جلالِ وحْدانِيَّتِهِ] : كَوُجُودِ شُرَكاءَ لَهُ . . . أَوْ وُجُودِ أَوْلادٍ مِنْهُ . . . أَوْ فِيما تُنْكِرُهُ مِنْ دَعْوَةِ القُرآنِ الْعَظيمِ ، كالْبَعْثِ والْجَزاءِ الأُخْرَوِيِّ .

الْهَدَفُ الثَّاني : هُوَ تَصْحِيحُ ما وَقَعَ ، مِنْ تَحْرِيفِ أَهْلِ الْكِتابِ ، في رِسالَةِ اللهِ تعالَى السَّابِقَةِ ، وبالأَخَصِّ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ في التَّوْراةِ . . . والإِنْجِيلِ مَعاً .

فَقَدْ بَلَغَ هَذا التَّحْرِيفُ قِمَّتَهُ ، في الشِّرْكِ باللهِ تعالَى وتأْلِيهِ الإِنسانِ ، حَيْثُ أَشارَ القُرآنُ الكَريمُ ، إِجْمالاً لِهَذا الْجانِبِ : في قَوْلِ اللهِ سُبْحانَهُ وتعالَى :

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾
(النمل:٧٦-٧٩).

تُوَجِّهُ الآياتُ القُرآنِيَّةُ الْكَرِيمَةُ النَّبِيَّ مُحَمَّداً عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، إِلَى تِبْيانِ اخْتِلافِ أَهْلِ الكِتابِ فيما بَيْنَهُم ، حَوْلَ رِسالَةِ موسى عليهِ السَّلامُ ، وَحَوْلَ تَكْلِيفِهِ بها . وَنُبُوَّةِ سُليمانَ عليهِ السَّلامُ ، وعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ . كما يَخْتَلِفُونَ أَيْضاً مَعَ القُرآنِ الكريمِ ، كَوْنُهُ يُصَحِّحُ لَهُم ، ما قامُوا بِتَحْرِيفِهِ ، زُوراً مِنْهُم وَبُهْتاناً . لِذا فإِنَّ هذا التَّصْحيحَ : دليلٌ عَلَى أَنَّ القُرآنَ المَجِيدَ وَحْيٌ مِنَ اللهِ تعالَى ، وليْسَ مِنْ تأْليفِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ . . . كَما أَنَّ القُرآنَ الكريمَ مِنْ مُهِمَّتِهِ : أَنْ يَكْشِفَ عَنْ تَحْرِيفِ أَهْلِ الْكِتابِ لِرِسالَةِ اللهِ تعالَى .

لِذَلِكَ فإِنَّهُ مَصْدَرُ هِدايَةٍ وَرَحْمَةٍ ، لِمَنْ آمَنُوا بالْفِعْلِ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ ، أَوْ لِمَنْ هُمْ عَلَى اسْتِعْدادٍ لأَنْ يؤْمِنُوا بِهِ ؛ ذلكَ لأَنَّهُ يُجَنِّبُ الإِيْمانَ الصَّحيحَ : تَحْرِيفَ أَصْحابِ الْمَصْلَحَةِ ، مِنَ [زُعماءِ الشِّرْكِ والمادِّيَّةِ] في تَغْيِيرِ رِسالَةِ اللهِ سُبْحانَهُ وتعالَى .

[أَمَّا] مَوْقِفُكَ أَيُّها الرَّسُولُ صَلَواتُ اللهِ عليكَ [وسلاماتُهُ] ، مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ الآنَ : أَنْ تَتْرُكَهُم لِعَدْلِ اللهِ تعالَى ، يَفْصِلُ بينَهُم في الآخِرَةِ بِحُكْمِهِ ، وهُوَ سُبْحانَهُ الْعَزِيزُ ، الَّذِي لا يُغْلَبُ ، والْعَلِيمُ الَّذِي لا تَخْفَى عليهِ خافِيَةٌ في السَّمواتِ والأَرْضِ . ثُمَّ اسْتَأْنِفْ دَعْوَتَكَ [النَّاسَ] إِلَى رِسالَةِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالَى ، مُتَوَكِّلاً عليهِ [وَحْدَهُ] ، وأَنْتَ واثِقٌ تَمامَ الثِّقَةِ ـ بَعْدَ ما يَكْشِفُ لَكَ الْقُرآنُ الكريمُ ، تَحْرِيفَ أَهلِ الْكِتابِ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ ـ بأَنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْواضِحِ الَّذِي لا يَقْبَلُ لَبْساً أَوْ خَلْطاً بِباطِلٍ إِطْلاقاً .

الْهَدَفُ الثَّالِثُ : بِناءُ الْمُجْتَمَعِ الإِسْلامِيِّ ـ طِبْقاً لِتَطَوُّرِهِ ، بَعْدَ قِيامِهِ بِيَثْرِبَ ، [أَيْ بالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ] ـ عَلَى أَساسِ : التَّكافُلِ في الاعْتِبارِ الْبَشَرِيِّ . . . والتَّكافُلِ فيما بينَ أَفْرادِ الْمُؤْمِنِينَ جَميعاً ، فِيما يُحَقِّقُ بَيْنَهُمُ الْعَدْلَ الاجْتِماعِيَّ ، بالْبُعْدِ عَنِ الإِسْرافِ ، في الاسْتِمْتاعِ بالْمُتَعِ المادِّيَّةِ ، الْمُتاحَةِ في مُحِيطِ النَّاسِ . . .

وبالإنفاقِ الْحُرِّ مِنْها [في سبيلِ اللهِ تعالَى] ، وفي سبيلِ الْخَيْرِ الْعامِّ للأُمَّةِ . وهذا الجانِبُ الثَّالِثُ تقومُ بِهِ السُّورُ الْمَدَنِيَّةُ في القُرآنِ الكريمِ)[1].

بِهَذِهِ الأَهدافِ الثَّلاثَةِ ، استَطاعَ «البهيُّ» ، أَنْ يَعْرِضَ مَنْهَجَ كتابِ اللهِ تعالَى كامِلاً ، في كَيْفِيَّةِ مُحاوَلَةِ نَقْلِ الْمُجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ ، مِنْ طُغْيانِ الْماديَّةِ ، إِلَى مُجْتَمَعٍ جَديدٍ ، تَسُودُهُ الْقِيَمُ الإِنْسانِيَّةُ ، في تَدَرُّجٍ وتَطَوُّرٍ ، ولَيْسَ في طَفْرَةٍ أَوْ ثَوْرَةٍ .

كما يُوضِّحُ أَيْضاً : أَنَّ مَنْهَجَ القُرآنِ العَظِيمِ قائِمٌ ، ويَجِبُ (أَنْ يُتَّبَعَ كُلَّما سَقَطَ الْمُجْتَمَعُ الْبَشَرِيُّ ، في دائِرَةِ التَّبَعِيَّةِ للماديَّةِ أَوِ الْجاهِلِيَّةِ ، لِيُصْبِحَ مُجْتَمَعاً ، يُعْنَى بالْقِيَمِ الإِنسانِيَّةِ ، في عَلاقاتِ الأَفْرادِ ، بَعْضِهِم بِبَعْضٍ . . . ويَهْتَمُّ بِخُطُواتِ هَذا الْمَنْهَجِ ، في مُلاءَمَتِهِ [أَوْ مواتَمَتِهِ] لِخَصائِصِ الطَّبيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ ، عِنْدَ نَقْلِ هَذِهِ الطَّبيعَةِ ، مِنْ عاداتٍ شائِعَةٍ ، غَيْرِ مَقْبُولَةٍ ... إلى أُخْرَى جَدِيْدَةٍ ، يَجِبُ اتِّباعُها .

ثُمَّ يُؤَكِّدُ أَنَّ التَطَوُّرَ ، [يقَعُ] في خُطُواتِ الْمَنْهَجِ [القُرآنِيِّ] ، وليسَ في مبادئِ الرِّسالَةِ الإِلَهِيَّةِ . . . فَعِلْمُ اللهِ تعالَى ثابِتٌ لا يَتَغَيَّرُ بِحالٍ ... والأَمْرُ الَّذِي يَتَغَيَّرُ ، هُوَ الاسْتِعْدادُ النَّفْسِيُّ ، لِمَنْ يَدْعُونَ إِلَى الإِيمانِ . . . وعلَى حَسَبِ تَغَيُّرِ هذا الاسْتِعْدادِ النَّفْسِيِّ ، يَنْزِلُ وَحْيُ اللهِ تعالَى ، بالأَمْرِ والنَّهْيِ . . . وَمِنْ أَجْلِ ذلِكَ ، نَزَلَ القُرآنُ الْمَجِيْدُ مُنَجَّماً ، في ثلاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً .

[ثُمَّ إِنَّ] الْمُجْتَمَعَ الَّذِي يَسْقُطُ في التَّبَعِيَّةِ لِطُغْيانِ الماديَّةِ ، لا يكونُ تَحَوُّلُهُ إلى الْمُجْتَمَعِ الإِنسانيِّ الْجَديدِ ، أَوِ الْمُجْتَمَعِ الإِسلامِيِّ ، بأَداءِ التَّكاليفِ دَفْعَةً واحِدَةً . . . فالانْتِقالُ مِنْ دَفْعَةٍ واحِدَةٍ ، مِنْ نَقِيْضٍ إِلَى نَقِيْضٍ ، لا يُسايِرُ الالتِزامَ الذَّاتِيَّ ، الَّذِي هُوَ أَساسُ الإِيْمانِ ، وَخَصِيْصَةُ الاعْتِقادِ)[2].

---

(١) محمد البهي : نحو القرآن ، ص٨٢ .

(٢) محمد البهي : منهج القرآن في تطوير المجتمع ، ص ٣٦٢ .

فالجوانبُ الثَّلاثَةُ الَّتِي تُمَثِّلُ ، مَضْمُونَ الْمَنْهَجِ القُرآنِيِّ ، وهِيَ : مُقاوَمَةُ الشِّرْكِ المادِّيِّ ، وتَصْحيحُ ما وَقَعَ مِنْ تَحْريفِ أَهْلِ الكِتاب ، ثُمَّ بِناءُ الْمُجْتَمَعِ الإِسلامِيِّ ، الْمُتَكافِئِ في الاعْتِبارِ البَشَرِيِّ ، يَرْبِطُ بَيْنَها حَدِيْثُ رَسُولِ اللهِ ﷺ . التَّالي : عَنْ أَبِي سَعيدٍ الْخُدْرِيِّ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ : «لاَ تُشَدُّ الرِّحالُ ، إِلاَّ إِلَى ثَلاثَةِ مَساجِدَ ، المَسْجِدِ الْحَرامِ ، وَالمَسْجِدِ الأَقْصَى ، وَمَسْجِدِي هَذَا»[1]. بِمَعْنَى أَنَّهُ : في شَدِّ الرِّحالِ إِلَى أَيِّ مَسْجِدٍ ، مِنْ هَذِهِ المساجِدِ الثَّلاثَةِ ، بِقَصْدِ السَّفَرِ إِليها ؛ مِنْ أَجْلِ الصَّلاةِ والعبادَةِ للهِ تعالَى فيها ؛ لأَنَّهُ في كُلِّ مَسجِد مِنْ هَذِه المساجِدِ ، الَّتِي نصَّ حَديثُ رسولِ اللهِ ﷺ ، علَى زيارتِها ، جانِبٌ إِيمانيٌّ عَقَدِيٌّ ، سَيَتَذَكَّرُ الْمُؤْمِنُ مُجَدَّداً خلالَ ذلكَ ، جانِبَ الرِّسالَةِ الإِيمانِيَّةِ التِي تَرْتَبِطُ به ، ويَرتَبِطُ بها دينياً وعبادَةً ؛ ثُمَّ لِكَيْ يَسْتَعِدَّ أَيْضاً لِما يَجِبُ عليهِ مِنَ الْمُشارَكَةِ في تَحْقِيقِهِ : مِنْ حَيْثُ التَّوَجُّهُ الإِيْمانيُّ ، والْمَنْهَجُ الْعَقَدِيُّ ، الَّذِي يَتَمَثَّلُ فيما يلي :

١ - **مُقاوَمَةُ المادِّيَّةِ** : فِزيارَةُ الْمَسْجِدِ الْحرامِ ، في مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ ، كما وردَ في الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ السَّابِقِ تَشُدُّ الزَّائِرَ لهُ ، إِلَى تَذَكُّرِ فَسادِ الشِّرْكِ ، وأَخْطارِ الْوَثَنِيَّةِ الْمادِّيَّةِ علَى الْبَشَرِيَّةِ . . . وَمِنْ ثَمَّ تَدْعُوهُ إِلَى الْوُقُوفِ في وَجْهِها ، وإِلَى مُطارَدَتِها في أَيِّ وَقْتٍ ، أَوْ في أَيِّ عَهْدٍ تَظْهَرُ فيهِ مَرَّةً أُخرَى ، في الْمُجْتَمَعِ الإِنسانِيِّ .

كذلك في تَحْدِيْدِ الْقُرآنِ الكَرِيْمِ لِمَظاهِرِ المادِّيَّةِ ، حَيْثُ لا تَخْفَى معالِمُها إِطْلاقاً ، مَهما حاوَلَتْ أَنْ تَتَسَتَّرَ ، وراءَ شِعاراتٍ خادِعَةٍ : كَشِعاراتِ الإِنسانِيَّةِ ... أَوْ نُصْرَةِ الكادِحِيْنَ . . . أَوْ تَحْقِيقِ الْعَدْلِ الاجْتِماعِيِّ .

---

(١) محمد بن إسماعيل الأمير اليمني الصَّنعانيُّ : سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام ، تحقيق ، عصام الصبابطي وعماد السيد ، رقم الحديث «١٢٩٥» ، مج٤ ، ٥٦٣/٤ . ورواه مسلم في صحيحه ، رقم الحديث «٧٨٩»، ص٢٣١.

وأمَّا أَهَمُّ مَظاهِرِ المادِّيَّةِ الوَثَنِيَّةِ ، مَعَ الأَدِلَّةِ عليها ، فَهِيَ كَما يلي :

أ- الإعْراضُ مِنَ المادِّيِّينَ عَنْ دينِ اللهِ تعالَى ، واشْمِئْزازُهُم مِنْ ذِكْرِ اللهِ تعالَى ، إذا ذُكِرَ وَحْدَهُ سُبْحانَهُ وتعالَى . وفي أَمْثِلَةِ ذلكَ يقُولُ اللهُ تعالَى :

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (الزمر: ٤٥).

لا زالَ القُرآنُ الكريمُ يَسوقُ الدَّليلَ تِلْوَ الدَّليلِ في مَنْهَجِهِ ، لإثْباتِ وحْدانِيَّةِ اللهِ تعالَى ، وَوَصْفِهِ بِكُلِّ كَمال ، وَتَنْزيهِهِ عَنْ كُلِّ نَقْص . مَعَ مُناقَشَةِ هؤُلاءِ الْمُشْرِكِينَ ، في عَقائِدِهِمُ الفاسِدَةِ ، تارةً يَلْفِتُ أَنْظارَهُم إِلَى مَعْبُوداتِهِم ، مِنْ حَيْثُ ضَرَرِها ، وتارةً بِتَهْديدِهِم وتَسْفيهِ أَحلامِهِم ، وبيانِ سُوءِهِم .

كَذلكَ فَإِنَّ مِنْ سيِّئاتِهِمُ الَّتي لا تُحْصَى ، أَنَّهُم : (إذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ ، مُفْرَداً عَنِ الآلِهَةِ [الْمُدَّعاةِ] ، اشْمأَزَتْ قُلُوبُ الْمُشْرِكِيْنَ ، الَّذِينَ لا يؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ ، وامْتَلأَتْ قُلُوبُهُم غَيْظاً وغَمًّا ، حتَّى يَظْهَرَ ذلكَ في وجُوهِهِم ، [والْعَجِيْبُ أَنَّهُم إذا ذُكِرَ مَنْ هُم دونَهُ مِنَ الآلِهَةِ الوثَنِيَّةِ] ، فاجأَهُم وَقْتُ الاسْتِبْشارِ ، الَّذِي تَشْهَدُ الْعُقُولُ بِبُطْلانِهِ) [1].

ب ـ وفي مَعْرِضِ إِنْكارِهِمُ للْبَعْثِ وجزاءِ الآخِرَةِ ، وإِيْثارِهِمُ للحياةِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَحْدها . قالَ اللهُ تعالَى : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾

(الجاثية: ٢٤).

تسوقُ الآيَةُ الكريمةُ مَظْهَراً آخَرَ ، مِنْ مظاهِرِ مَنْهَجِ القُرآنِ الْمَجِيْدِ ، في تَصْنِيفِ الْمُشْرِكِينَ أَصْنافاً ، منْهُم : مَنْ يَشُكُّ بالبَعْثِ والنُّشُورِ يَوْمَ القِيامَةِ ، ومِنْهُم مَنْ يَجْزِمُ بِعَدَمِ وُجُودِهِ ومِنْ الأَدِلَّةِ على مُعْتَقَداتِهِمُ الفاسِدَةِ ، قَولُهُم :

---

(١) محمد محمود حجازي : التفسير الواضح ، ٩/٣ .

(ما هِيَ إلاَّ حياتُنا الدُّنيا فَقَطُ ، ولا حياةَ بَعْدَها ، ونَحْنُ نَحيا فيها ونَموتُ ، ويَحيا بَعْضُنا ويَمُوتُ الآخَرُ ، وليْسَ موتُنا مِنْ طَريقِ الخالِقِ يَتَوَفَّى أَرْواحَنا ، بِسَبَبِ مَلَكِ الْمَوْتِ ، بَلْ ما يُهْلِكُنا إلاَّ الدَّهْرُ . فإذا طالَ عُمُرُنا ، وَضَعُفَتْ قُوانَا . ماتَتْ أَجْسادُنا وَحْدَها ، وَصِرْنا إلَى فَناءٍ ، ليسَ بعدَهُ حياةٌ . وَما لَهُم بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ يَقِينِيٍّ ؛ إنْ هُمْ إلاَّ يَظُنُّونَ ظَنًّا ، لا أَساسَ لَهُ مِنْ حُجَّةٍ ، ولا سَنَدَ لَهُ مِنْ دَليلٍ)[1].

ت ـ إيمانُهُم بالشَّواهِدِ والدَّلائِلِ المادِّيَّةِ وَحْدَها ، وإنْكارُهُم ما وراءَها ، مِنَ الْمعاني والْقِيَمِ الإنسانِيَّةِ . وفي ذلكَ يقولُ اللهُ سُبحانَهُ وتعالَى :

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (الإسراء: ٩٠-٩٣). تَسْتَمِرُّ آياتُ اللهِ تعالَى بِعَرْضِ مَنْهَجِ اللهِ تعالَى ـ وإثْباتِ وحْدانِيَّتِهِ ـ عَلَى مَسْمَعِ وَرُؤَى الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ . فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُم إعْجازُ الْقُرآنِ الكَرِيمِ ، وغُلِبُوا علَى أَمْرِهِم ، ثُمَّ لَزِمَتْهُمُ الْحُجَّةُ ، أَخَذُوا يَتَعَلَّلُونَ ويَقْتَرِحُونَ علَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، بِطَلَبِ الْمُعْجِزاتِ الْحِسِّيَّةِ الْخارِقَةِ ، مِمَّا يَدُلُّ علَى سَفَهِهِم وَجَهْلِهِم الْكَبِيرَيْنِ ، بِسُنَّةِ اللهِ تعالَى في خَلْقِهِ ، وَبِحِكْمَتِهِ وجلالِهِ . فقالَ الْمُشْرِكُونَ : (لَنْ نُصَدِّقَكَ يا مُحَمَّدُ [ﷺ] ، حتَّى تُشَقِّقَ لَنا مِنْ أَرْضِ مَكَّةَ عَيْناً غَزِيرَةً ، لا يَنْقَطِعُ مِنها الماءُ ، ويكونَ لكَ بُسْتانٌ ، فيهِ أَنْواعُ النَّخِيلِ والأَعْنابِ .

---

(١) محمد محمود حجازي : التفسير الواضح ، ٨٥/٣ .

كما تَجْعَلُ الأَنْهارَ تَتَفَجَّرُ فيها [أي في البُستان]، وَتَسِيرُ وَسَطَها بِقُوَّةٍ وَغَزارَةٍ ، ثُمَّ تَجْعلُ السَّماءَ تَتَساقَطُ علينا قِطَعاً قِطَعاً ، كما كُنْتَ تُخَوِّفُنا ، وَتَزْعُمُ أَنَّ اللهَ سَيُعَذِّبُنا بها ، إِنْ لَمْ نُؤْمِنْ بِكَ ، وبِرِسالَتِكَ . .

[ثُمَّ تَطاوَلُوا في اقْتِراحاتِهِمُ المَجْنُونَةِ الشَّاذَّةِ ، فَقالُوا أَوْ :] تُحْضِرَ لَنا اللهَ - [تعالَى اللهُ عَنْ مَطالِبِهِم هَذِهِ عُلُوًّا كَبيراً] - وملائِكَتَهُ ، مُقابَلَةً وَعَياناً فَنَراهُم ، أَوْ يكونَ لكَ قَصْرٌ مُشَيَّدٌ عَظيمٌ مِنْ ذَهَبٍ ، لا مِنْ حَجَرٍ أَوْ طِينٍ ، أَوْ تَصْعَدَ إِلَى السَّماءِ بِسُلَّمٍ ، ولَنْ نُصَدِّقَكَ لِمُجَرَّدِ صُعُودِكَ ، حتَّى تَعودَ ومعكَ كتابٌ مَنْشُورٌ مِنَ اللهِ تعالَى ، أَنَّكَ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، ونقرؤُهُ بِأَنْفُسِنا .

قُلْ لَهُم يا مَحَمَّدُ - عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ - تَعَجُّباً مِنْ فَرْطِ كُفْرِهِم وعِنادِهِم : سُبْحانَ اللهِ تعالَى ، هَلْ أَنا إِلَهٌ ، حتَّى تَطْلُبُوا مِنِّي أَمْثالَ هَذِهِ الْمُقْتَرَحاتِ؟! ما أَنا إِلاَّ رَسُولٌ مِنَ الْبَشَرِ ، بَعَثَنِيَ اللهُ سُبحانَهُ وتعالَى إِليكُم ، فَلِمَ هَذَا الْجُحُودُ وَالْعِنادُ؟!) [1].

٢- **تَصْحيحُ أَخطاءِ أَهْلِ الْكِتابِ** : أَمَّا زيارَةُ الْمَسْجِدِ الأَقْصَى ، فإِنَّها تُذَكِّرُ الزَّائِرَ الْمؤْمِنَ ، بِدَعْوَةِ الرَّسُولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، بالجانِبِ الثَّاني في رِسالَةِ الْقُرآنِ الكَريمِ ، هوَ : جانِبُ تَصْحيحِ انْحِرافاتِ أَهْلِ الْكِتابِ : مِنْ يهود . . . وَمَسيحِيِّينَ : لِكِتابِ اللهِ تعالَى : التَّوراةِ . . . والإِنْجيلِ مِنْ بَعْدِهِ . والقُرآنُ يُعيدُ رِسالَةَ اللهِ تعالَى الْحَقَّةَ في جَوْهَرِها ، الَّتِي أُرْسِلَ بها موسَى ، ثُمَّ عيسى عليهِما السَّلامُ ، يقولُ اللهُ تعالَى :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ

---

(١) محمد علي الصّابوني : صفوة التفاسير ، ١٧٦/٢ .

مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (المائدة:٤٨).

جَعَلَ اللهُ تعالَى القُرآنَ الكَريمَ ، هُوَ الْمَرْجِعُ الأخيرُ في منهَجِ الحياةِ وشَرائِعِ النَّاسِ ، ونِظامِ حياتِهم ، بلا تَعْديلٍ في ذلكَ ولا تَبْديلٍ ، وَمِنْ ثَمَّ فَكُلُّ خِلافٍ ، يَجِبُ أَنْ يُرَدَّ إِلَى هَذا الكتابِ ، لِيَفْصِلَ فيهِ ، (سواءٌ أكانَ هَذا الْخلافُ في التَّصَوُّرِ الاعْتِقادِيِّ ، بَيْنَ أَصْحابِ الدِّياناتِ السَّماويَّةِ ، أَوْ في الشَّريعَةِ الَّتي جاءَ هذا الْكِتابُ ، بِصُورَتِها الأخيرَةِ ، أَوْ كانَ الْخِلافُ بيْنَ الْمُسلمينَ أَنْفُسِهم ؛ [لأنَّهُ قَدِ اكْتَمَلَ] هذا الدِّينُ ، وتَمَّتْ بِهِ نِعْمَةُ اللهِ تعالَى علَى الْمُسلمِيْنَ ، وَرَضِيَهُ اللهُ سُبحانَهُ وتعالَى لَهُم مَنْهَجَ حياةٍ ، بَلِ للنَّاسِ جَميعاً ؛ [لأنَّهُ يَتَّسِعُ لِحياتِهم أَجْمَعِيْنَ] إِلَى يَوْمِ الدِّينِ . وأيُّ تَعْدِيلٍ في هـذا الْمَنْهَجِ ـ وَدَعْكَ مِـنَ الْعُدُولِ عَنْهُ ـ هُوَ إِنْكارٌ لِهَذا الْمَعْلُومِ ، مِنَ الدِّينِ بالضَّرُورَةِ . يُخْرِجُ صاحِبَهُ مِنْ هَذا الدِّينِ [أيْ مِنْ عقيدَةِ الإيمانِ والإسلامِ] .

[ثُمَّ حَذَّرَ اللهُ تعالَى رسُولَهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ كما أَنَّ التَّحْذيرَ للْمُسلمينَ أَيْضاً ـ مِنْ مُتابَعَةِ أَهواءِ أَهْلِ الكتابِ في أَحْكامِهم ، خَاصَّةً اليهودِ ، تَحْتَ أَيِّ شِعارٍ مِنَ الشِّعاراتِ الزائِفَةِ ، وَذلِكَ :] لِيَقْطَعَ الرَّغْبَةَ الْبَشَرِيَّةَ الْخَفِيَّةَ [وَالْعَلَنِيَّةَ] في التَّساهُلِ مَعَهُم ، بِحُجَّةِ مُراعاةِ الاعْتِباراتِ [الشَّخصيَّةِ أَوِ] الظُّرُوفِ [الحياتيَّةِ]، أَو تأْليفاً للقُلُوبِ حِيْنَ تختَلِفُ الرَّغَباتُ والأَهْواءُ [بينَ الْمُسلمينَ] .

فأَخْبَرَ اللهُ تعالى نَبِيَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : أَنَّ اللهَ لَوْ شاءَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً ؛ ولكنَّهُ جَعَلَ لِكُلٍّ مِنْهُم طَريقاً وَمِنهاجاً ؛ وَجَعَلَهُم مُبْتَلَونَ مُخْتَبَرَونَ ، فيما آتاهُم مِنَ الدِّينِ والشَّريْعَةِ .

ثُمَّ يُرْجَعُونَ كُلُّهُم إِلَى اللهِ سُبْحانَهُ وتعالَى ، فَيُنَبِّئُهُم بالحَقِيقَةِ ، ويُحاسِبُهُم علَى ما اتَّخَذُوا مِنْ مَنْهَجٍ وطَريقٍ . . . وَأَنَّهُ لا يَجُوزُ أَنْ يُفَكَّرَ في التَّساهُلِ ، في

شيءٍ مِنَ الشَّرِيعَةِ ، لِتَجْمِيعِ الْمُخْتَلِفِينَ فِي الْمَشَارِبِ والْمَنَاهِجِ . . . فَهُم لا يَتَجَمَّعُونَ لِقَوْلِهِ تعالَى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ .

بِذلِكَ أَغْلَقَ اللهُ سبحانَهُ وَتعالَى ، مَدَاخِلَ الشَّيْطانِ كُلَّها ؛ خاصَّةً ما يَبْدُو مِنْها خَيْراً ، وتأليفاً لِلقُلُوبِ ، وتَجْمِيعاً لِلصُّفُوفِ ؛ بالتَّساهُلِ في شيءٍ مِنَ شَرِيعَةِ اللهِ تعالَى ، في مُقابِلِ إِرْضاءِ الْجَمِيعِ! أَوْ في مُقابِلِ ما يُسَمُّونَهُ وِحْدَةَ الصُّفُوفِ!)[1] .

مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يكونَ مَعلُوماً بالضَّرورَةِ ، في مُحيطِ الآياتِ الكريمَةِ : أَنَّ شَرِيعَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، أَبْقَى وأَغْلَى مِنْ أَنْ يُضَحَّى بِجُزْءٍ مِنها . خاصَّةً في مُقابِلِ شيءٍ ، قَدَّرَ اللهُ تعالَى أَلاَّ يكونَ واحِداً ، [بمعنى أَنَّ الدِّينَ الَّذي كُلِّفَ بِتَبليغِهِ الأنبياءُ والمُرسَلُونَ ، هُوَ دِينُ التَّوحيدِ ، لأَنَّ مَصْدَرَهُ واحِدٌ هُو اللهُ سُبحانَهُ وتَعالَى ، ولكنَّ الاختلافَ بينَهُم بالمنهَجِ أو الطريقةِ» أي الشرائعِ ، وذلكَ للاختبارِ والابتلاءِ] .

فالنَّاسُ قَدْ خُلِقُوا ولِكُلٍّ مِنهُم استِعْدادُهُ ، ومَنْهَجُهُ وطَريقُهُ . وَلِحِكْمَةٍ مِنْ حِكَمِ اللهِ تعالَى ، خُلِقُوا هكَذا مُخْتَلِفِينَ .

كَذلكَ عَرَضَ اللهُ سُبحانَهُ وتعالَى عَلَيهِمُ الْهُدَى والإيمانَ ، بوساطَةِ كُتُبِهِ ورُسُلِهِ ، ثُمَّ مَنَحَهُمُ العَقلَ المُمَيِّزَ ، وهُوَ مناطُ التَّكْليفِ في الإنسانِ ، ثُمَّ تَرَكَهُم بعدَ هذا يَسْتَبِقُونَ في الاسْتِجابَةِ ، حَسَبَ اختيارِهِم . إِذْ جَعَلَ اللهُ تعالَى هذا الأَمْرَ امتِحاناً وابْتِلاءً للنَّاسِ . يَقُومُ عَلَيهِ جَزاؤُهُم ، يومَ يُرْجَعُونَ إِليهِ سُبحانَهُ وَتعالَى .

٣- أخطاءُ أَهْلِ الكتابِ : هيَ أَخطاءٌ في الاعتِقادِ . إِمَّا بِجَعْلِهِم الإنسانَ ابناً للهِ ، وبذلكَ يكونُ شريكاً لهُ في الأُلوهِيَّةِ ، علَى نَحْوِ ما قالَتْ اليهودُ في عُزَيْرٍ ... والنَّصارَى في المَسيحِ . قالَ اللهُ تعالَى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، مج ٢ ، ٧٤٧/٤-٧٤٩ .

﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

(التوبة: ٣٠).

ذَكَرَ اللهُ تعالَى في آياتِهِ هَذِهِ : طَرَفاً مِنْ قبائحِ أهْلِ الكِتاب ، اليهودِ والنَّصارَى ، الَّذِينَ ينْسِبُونَ للهِ تعالَى الْوَلَدَ زُوراً وبُهْتاناً . فَهذا دليلٌ على تِيْهٍ وخَلَلٍ في الْفِكْرِ والْمَنْهَجِ لَدَيْهِم ، ثُمَّ تَمَرُّدٌ مِنْهُم علَى الأنبياءِ والْمُرْسَلِيْنَ عامَّةً .

حَيْثُ شأْنُ المُرسَلِينَ ، الثَّباتُ في مَنْهَجِهِمُ الْعَقَدِيِّ : وَهُوَ التَّوحِيدُ للهِ سُبحانَهُ وتعالَى ، الْواحِدِ الأحَدِ ، الْفَرْدِ الصَّمَدِ . وهَذا لا يُعْجِبُ أصحابَ الْكُفْرِ الْمُنْحَرِفِيْنَ مِنْ أهلِ الكتابِ ؛ لِذلكَ لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالَى (بِقِتالِ أهْلِ الْكِتابِ لِكُفْرِهِم وَعَدَمِ إيمانِهِم ، الإيمانَ الْحَقَّ الْمُنْجِيَ مِنَ النَّارِ ، ذَكَرَ سُبْحانَهُ وتعالَى السَّبَبَ [الَّذِي يُؤَكِّدُ وَيُقَرِّرُ كُفْرَهُم] بِجَلالِهِ وَكَمالِهِ ، [فها هُوَ يُبَيِّنُ سُبحانَهُ وتعالَى ، أحْوالَ أهلِ الكتابِ مِنَ اليهودِ والنَّصارَى ، في قضيَّةِ عقيدَتِهِم الفاسِدَةِ] ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾.

فَنِسْبَةُ الْوَلَدِ مِنْهُم إلى اللهِ تعالَى ، افتراءٌ عليهِ سُبحانَهُ وتعالَى ، وَكُفْرٌ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ ، ثُمَّ إنْكارٌ لِما لَهُ مِنْ جَلالٍ وَكَمالٍ ، [كَما أنَّ هَذا الادِّعاءَ] ليسَ لَهُ مِنَ الْواقِعِ شيءٌ ، إذْ ليسَ للهِ تعالَى زَوْجَةٌ ، فكَيْفَ يكونُ لَهُ ولَدٌ؟! . . . ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ .

في الآيةِ أيضاً دُعاءٌ عَلَيهِم بالَّلعْنِ والطَّرْدِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تعالَى . [لأنَّهُ :] كَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ ، ويَبْتَعِدُونَ عَنْهُ بِهَذِهِ [الطَّريقَةِ ، وبِهَذِهِ] الصُّورَةِ الغريبَةِ الْعَجيبَةِ !) [1].

---

(١) أبو بكر جابر الجزائري : أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ، ١/٦٣٤ ، ٦٣٥ .

٤- **بناءُ المُجتَمعِ الإنسانيِّ** : وأخيراً : فإنَّ زيارَةَ مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ ، في المدينَةِ المُنَوَّرَةِ ، تُذكِّرُ الزَّائِرَ لَهُ والْمُصَلِّي بِهِ ، بالْهَدَفِ الثَّالثِ مِنْ أَهْدافِ الْقُرآنِ الْكَرِيمِ ، وَهُوَ هَدَفُ : بناءُ الْمُجْتَمَعِ الإِسلامِيِّ بالمَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ ؛ لِكَي يُراجِعَ الزَّائِرُ نَفْسَهُ ، وَما يَلْتَزِمُ بِهِ إِزاءَ قُوَّةِ هذا الْمُجْتَمَعِ وَتَماسُكِهِ : إِنْ في الارْتِباطِ بأَفْرادِهِ . . . وإِنْ في الدِّفاعِ عَنْ بقائِهِ .

بهذا يكونُ قَدْ أُقِيمَ الْمُجْتَمَعُ الإِسلامِيُّ ، علَى أُصولٍ عامَّةٍ ، في سياسَتِهِ الدَّاخليَّةِ . . . وأُخْرَى في سياسَتِهِ الخارِجِيَّةِ)[1].

كَما أَنَّهُ مِنَ الْملحوظِ ، أَنَّ مناهجَ البحثِ في التَّفسير الموضوعِيِّ ، تَقَعُ عندَ «البهيِّ» في مَنْهَجَينِ اثْنَينِ ، هُما :

الْمَنْهَجُ الأَوَّلُ : أَنْ يَجْعَلَ السُّورَةَ القُرآنِيَّةَ هِيَ وحِدَتُهُ الْموضوعيَّةُ : حَيْثُ كانَ يَنْظُرُ إِليها نَظْرَةَ إِحاطَةٍ وَشُمُولٍ ، مَهْما تَعَدَّدَتْ مَوْضوعاتُها ، وتباينَتْ أَسْبابُ نُزُولِها ، فالْعَمَلِيَّةُ التَّفْسِيرِيَّةُ لَدَيْهِ ، تَشْمَلُ السُّورَةَ كُلَّها ، لا تَتَعَدَّاها في مُعْظَمِ الأَحْيانِ ، وتَدُورُ حَوْلَ غَرَضٍ مُحَدَّدٍ ، سواءٌ كانَ عامّاً ، أَوْ خاصّاً .

فيقُولُ - على سبيلِ المِثالِ - إِنَّ سُورَةَ الأَعْرافِ (مِنْ بيْنِ سُورِ القُرآنِ الكَرِيمِ كُلِّهِ ، [الَّتِي يَتَوَفَّرُ فيها] تاريخُ الإِنسانيَّةِ . [ثُمَّ يُبْرِزُ النِّقاطَ التَّالِيَةَ ؛ لتَوْضِيحِ ما ذَهَبَ إِليهِ ، في دَوْرِ الإِنسانِ] :

- في نَشْأَةِ الإِنْسانِ ، وأَهْلِيَّتِهِ للسُّمُوِّ ، فَوْقَ الطَّبائِعِ الأُخْرَى في الْكَوْنِ .
- وفي وَضْعِهِ مَوْضِعَ التَّجْرِبَةِ ، لِمَدَى اسْتِقْلالِهِ في التَّوْجِيهِ ، وصَلابَةِ إِرادَتِهِ نَحْوَالسُّمُوِّ .
- وفي خِلافَتِهِ علَى الأَرْضِ ، وَمُهِمَّتِهِ عليها ، مِنْ نُصْرَةِ الْحَقِّ ضِدَّ الباطِلِ .

---

(١) محمد البهي : نحو القرآن ، ص ٨٢-٩٦ .

- وفي رِسالَةِ اللهِ تعالَى لَهُ ، لِتَوْضِيحِ طَرِيقِ الأَمانِ مِنَ الزَّلَلِ ، والوِقايَةِ مِنَ السُّقُوطِ والتَّرَدِّي في دائِرَةِ الغِوايَةِ .
- وفي عَرْضِ أَحْداثِ الْمُجْتَمَعاتِ الْبَشَرِيَّةِ . . . وأَسْبابِ سُقُوطِها وفَنائِها ، الَّتِي تَرْجِعُ غالباً إِلَى صُوَرِ الاعتداء الْمُخْتَلِفَةِ علَى الضُّعَفاءِ ، وإِلَى الظُّلْمِ في مَنْعِهِم مِنْ مُباشَرَةِ حُقُوقِهِم في الْحَياةِ . [فها هُو يُحَدِّدُ مَنْهَجَهُ في السُّورةِ ، مُتناوِلاً إِيَّاها كَوِحْدَةٍ موضوعيَّةٍ واحدَةٍ ، قائِلاً :] إِنَّ سُورَةَ الأَعْرافِ تُحَدِّدُ ، [نُقْطَتَيْنِ أَوْ هَدَفَيْنِ ، هُما] :

أولاً : الرُّوحيَّةُ الإِنْسانِيَّةُ في سُمُوِّها ، وأَثَرِها ، وَنَشْأَتِها .

ثانياً : المادِّيَّةُ في طُغْيانِها وانْحِرافاتِها ، وَنَشْأَتِها ، وأَثَرِها .

[يَرَى «البهيُّ» أَنَّ هَذَيْنِ الْهَدَفَيْنِ ، مِنْ ضَرورات الْحياةِ ، في الْمُجْتَمَعاتِ الْبَشَرِيَّةِ كُلِّها ، إِلَى نِهايَةِ مُهِمَّةِ الإِنسانِ علَى الأَرْضِ] .

إِنَّها [أَيْ سُورَةُ الأَعْرافِ] تُقَدِّمُ ـ في إِجْمالٍ ـ صِراعَ المادِّيَّةِ مَعَ الرُّوحِيَّةِ ... والسُّوَرُ والآياتُ الْمَكِّيَّةُ الأُخْرَى في القُرآنِ الكَرِيمِ ، هِيَ بِمَثابَةِ تَفْصِيلٍ لِجانِبٍ أَوْ لأَكْثَرَ ، مِنْ جوانِبِ الْمادِّيَّةِ والرُّوحِيَّةِ)[1] .

لِذا فإِنَ «البهيَّ» عندما أَرادَ ، أَنْ يُفَسِّرَ القُرآنَ الكَرِيمَ ، بِمَنْهَجِ التَّفسيرِ الموضُوعِيِّ ، جَعَلَ سُورةَ الأَعْرافِ ، بِدايَةً لِهذا التَّفْسيرِ ، قائلاً : (قَصَدْتُ مِنْ هَذِهِ الْمُحاوَلَةِ ، عَرْضَ القُرآنِ الكريمِ ، في حَلِّهِ لِمَشاكِلِ الْمُجْتَمَعِ الإِنسانِيِّ ، في حاضِرِنا الرَّاهِنِ ، كَما كانَ مَصْدَراً لِحَلِّها بالأَمْسِ ، يومَ أَنْ نَزَلَ الْوَحيُ بِهِ ، وكَما يحُلُّها في غَدِ الإِنسانِ ، لأَنَّهُ لِطَبيعَةِ الإِنسانِ [بِشَكْلٍ دائِمٍ وَمُستَمِرٍّ] ، وليسَ لِمَرْحَلَةٍ [مُحَدَّدَةٍ] مِنْ مراحِلِ تَطَوُّرِ الإِنْسانِيَّةِ ، في عَهْدٍ خاصٍّ بها)[2] .

(٢،١) محمد البهي : التفسير الموضوعي للقرآن الكريم «تفسير سورة الأعراف» ، ص٣-٥.

فالسُّورَةُ الكريمةُ تُعنَى في الدَّرَجَةِ الأُولَى ، بالْهَدَف الرئيسِ لِدَعْوَةِ الإسلامِ ، وهُوَ إعلانُ التَّوحيدِ في الأُلوهيَّةِ ، وَرَفْضُ الشِّرْكِ في مجالَي : العِبادَةِ والولاءِ . بالإضافَةِ إِلَى إِعْدادِ السُّورَةِ لجوِّ الثِّقَةِ باللهِ سُبحانَهُ وتعالَى ، الَّذِي يُحيطُ بالدَّعْوَةِ الإسلامِيَّةِ والدُّعاةِ علَى حَدٍّ سواءٍ ؛ وذلكَ لِتَثْبيتِ الثِّقَةِ بالنَّفْسِ ، بعدَ اللهِ عَزَّ وجلَّ ، ثُمَّ أَخيراً : الثِّقَةُ بأنَّ الحقَّ سَيَنْتَصِرُ علَى الباطِلِ ، مَهما طالَ الأَمَدُ ؛ لأنَّ الإيمانَ باللهِ تعالَى ، لا بُدَّ أَنْ يَنْتَصِرَ علَى الكُفْرِ والإلحادِ .

المَنْهَجُ الثَّاني : هو الْمَنْهَجُ التَّجْمِيعِيُّ التَّكامُلِيُّ : إِذِ احْتَفَظَ «البهيُّ» هُنا في منْهَجِهِ التَّفْسِيْرِيِّ للقُرآنِ الكريمِ ، بِتَقْسِيْمِهِ إِلَى : مَكِّيٍّ ومَدَنِيٍّ . ثُمَّ اتَّخَذَ عُنواناً جديداً ، في تفسيرِهِ للقُرآنِ الْمَكِّيِّ ، أَطْلَقَ عليه اسْمَ : القُرآنُ في مُواجَهَةِ الْمادِّيَّةِ :

حيثُ تناولَ جميعَ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ ، باعْتِبارِها وِحْدَةً واحِدَةً ، تَدُورُ حَوْلَ الْمُجْتَمَعِ الْجاهليِّ الْمادِّيِّ ، الَّذِي تَسودُهُ الطَّبَقِيَّةُ والْعَصَبِيَّةُ ، وتَنْحَصِرُ اهْتِماماتُهُ في جَمْعِ الأموالِ وتَكْدِيسِها .

هذا الْمُجْتَمَعُ الْجاهِلِيُّ (مهما اخْتَلَفَتِ الأَسْماءُ والْمُسَمَّياتُ ، في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ ، إلى أَنْ يَرِثَ اللهُ الأَرْضَ ومَنْ عليها ، فإنَّهُ يَتَصَدَّى دائِماً لِوَحْدانِيَّةِ الأُلوهِيَّةِ ، مِنْ مُنْطَلَقِ مَصْلَحَتِهِ المادِّيَّةِ وَحْدَها .

كانتِ النِّيَّةُ [لَدَى «البهيِّ» ، تَهْدِفُ] ـ بعدَ الانتهاءِ مِنَ تَفسيرِ القُرآنِ الكريمِ كُلِّهِ بأقسامِهِ الثَّلاثَةِ : المكِّيِّ ، بعنوانِ : القرآنُ في مُواجَهَةِ المادِّيَّةِ .

والمدَنِيِّ بعنوانَي : القُرآنُ في بناءِ المجتَمَعِ ، والقُرآنُ في تنظيمِ الْمُجْتَمَعِ ـ إلى أَنْ يُطْبَعَ التَّفسيرُ كُلُّهُ في مُجَلَّدٍ واحِدٍ . . . مَعَ التَّمْييزِ بيْنَ كُلِّ قِسْمٍ مِنْ أَقْسامِهِ ، [وذلكَ بِطَبْعِهِ] بلونٍ مُغايرٍ . . . وبِهذا يكونُ ـ بينَ يَدَيِ القارئِ ـ

التفسيرُ الفريدُ للقرآنِ الكريمِ ، الَّذي لمْ يُسْبَقْ إليهِ . . . ولكنْ شاءَتْ إرادَةُ اللهِ تعالَى . . . أنْ يُوافِيَهُ الأَجَلُ قبلَ أنْ يُتِمَّ مَشْرُوعَهُ هذا العظيمَ)[1].

قَدَّمَ «البهيُّ» مِنَ التَّفسيرِ الموضوعيِّ للقرآنِ الكريم ، تفسيراً لِثلاثٍ وعِشرينَ سورةً مكِّيَّةً ، بالإضافَةِ إلى جُزءِ عَمَّ ، وامتازَ مَنْهَجُهُ الأَوَّلُ ـ الخاصُّ بالسُّوْرَةِ الواحِدَةِ ، بِكُلِّ عناصِرِها ، وأَغْراضِها ، ومُشْتَمَلاتِها ـ بِقِمَّتِهِ الْعِلْمِيَّةِ ، ذاتِ الصُّورةِ الْمُترابِطَةِ ، وَالمُحْكَمَةِ الْبناءِ . حَيثُ تَكَوَّنَتْ طَريقةٌ سهلَةٌ لِفَهْمِ الْهَدَفِ ، منْ جوانِبِ مَوْضُوعِهِ .

هذا وقَدَ طَرَحَ خَلْفَهُ العقائِدَ الْفاسِدَةَ . ثُمَّ جعلَ هَدَفَهُ الأَسْمَى ، هُوَ إِبْرازُ مَحاسِنِ القُرآنِ الكَريمِ ، وفَضائِلِ تَشْريعاتِهِ ، لِخِدْمَةِ الْفَرْدِ والْمُجْتَمَعِ الإسلامِيِّ .

* * *

(١) محمد البهي : التفسير الموضوعي للقرآن الكريم «تفسير سورة الأعراف» ، ص ١١ ، ١٢ .

المبحثُ الثَّالِثُ

مَنْهَجُهُ في الاقْتِصادِ

ينْطَلِقُ «البهيُّ» في مَنْهَجِهِ الاقْتِصادِيِّ وَمَوْقِفِهِ الْعِلْمِيِّ مِنْهُ ، انْطِلاَقاً مُسْتَمَدّاً مِنْ رِسالَةِ الإسلامِ ، في إعادَةِ تَقْييمِ كُلٍّ مِنَ الاقتِصادِ والإنْسان ، تَقييماً حَقيقيّاً نَقِيّاً ، نافياً للْحَرَجِ والارْتباكِ ، بعيداً عَنِ الرِّياءِ والنِّفاقِ ، مُكافِحاً للجَشَعِ والاحْتِكارِ .

فالنَّظْرَةُ الأساسيَّةُ لِرسالَةِ الإسلامِ ، إنَّما قامَتْ فيما تدْعو إليهِ ، إلَى مُواجَهَةِ المادِّيَّةِ ، الَّتِي تَعْنِي : طُغْيانَ الاقتصادِ : الَّذِي كانَ مِنْ نتائِجِهِ الاستِخفافُ بالإنسانِ ، حَيْثُ إنَّ الإنسانَ الَّذِي يَعيْشُ في ظِلِّ طُغْيانِ الاقتصادِ وظُلْمِهِ ، سيُؤْثِرُ في يومٍ ما جانِبَ المالِ والمادِّيّاتِ ، علَى الجوانِبِ الإنسانِيَّةِ ، والْقِيَمِ الأخلاقِيَّةِ الرَّفيعَةِ ، الْمُشْتَرَكَةِ بينَ النَّاسِ ، في المُعامَلَةِ ، والسُّلُوكِ ، والتَّفكيرِ .

ومِنَ الأمْثِلَةِ في هذا : التِّجارةُ في غيابِ الإسلامِ ورسالَتِهِ ، أو عِند ما يَتَفَشَّى الْعُنْصُرُ المادِّيُّ في المُجتَمَعِ . فإنَّ التّاجِرَ الْمادِّيَّ ، لا يَرْعَى حاجَةَ الْمُتَعامِلِينَ مَعَهُ ، وَلا ضَعْفِهِم في الْقُدْرَةِ المالِيَّةِ .

إنَّما يَهْتَمُّ بِحُصُولِهِ على أكْبَرِ نِسْبَةٍ مُمْكِنَةٍ ، في الرِّبْحِ مِنَ التِّجارَةِ مَعَهُم ، فَهُوَ لا يَعْرِفُ قيمَةَ الرَّحْمَةِ ، بينَ الْقِيَمِ الإنسانِيَّةِ ؛ لأنَّها بالنِّسبَةِ لَهُ ، لا تَدْخُلُ في الْعَدَدِ والحِسابِ الْمادِّيِّ . وربَّما يُصَعِّدُ الْمُعادَلَةَ ، فَيَحْتَكِرُ الموادَّ الضَّروريَّةَ ، في سُبُلِ الْعَيْشِ ، فَتَشْتَدُّ عندئذٍ الحاجَةُ إليها ، مِمَّا يؤدِّي إلى ارْتِفاعِ الثَّمَنِ ، وَقِلَّةِ القُدْرَةِ الماليَّةِ ، لَدَى أصْحابِ الحاجَةِ ، ثُمَّ تَزدادُ آلامُهُم ، بِسَبَبِ نَقْصِ القُدْرَةِ الشِّرائِيَّةِ لَدَيْهِم ، وعَنْ هذا الطَّريقِ تُتَخَمُ بُطونُ وجُيوبُ قِلَّةٍ مِنَ الْمُحْتَكِرِينَ ،

وتَتَضَوَّرُ غالبيَّةُ النَّاسِ جُوعاً ، فَتنهارُ الرَّحْمَةُ والقيَمُ الإنسانيَّةُ ، أمامَ مارِدِ الطُّغيانِ الاقتصاديِّ الْجَشِعِ .

أمَّا رِسالَةُ الإسلامِ ومنهَجُهُ الاقتصاديُّ ، فقَدَ رَسَما خُطُوطاً إنسانيَّةً عامَّةً (لإعادَةِ التَّوازُنِ ، أَوْ إعادَةِ التَّقْييمِ بينَ الْجانِبَيْنِ : الاقتصادِ ـ والإنسانِ ، تَرْعَى في الاقتصادِ عامِلاً رئيسيّاً [رئيساً] في حياةِ الإنسانِ . ولكنْ لا تُقَيِّمُهُ بِقيمَةٍ أعلَى مِنَ الإنسانِ ، فَضْلاً عَنْ أنْ تَصِلَ بِهِ إلَى مُستَوى الإلَهِ .

ولا تَدْعُو إلَى الانْصِرافِ عَنْهُ [أيِ الاقتصادِ] ، ولا إلَى الاسْتِخْفافِ بِقِيمَتِهِ ، أَوْ إلَى تَرْكِ الْعَمَلِ في إنْمائِهِ ، أَوْ إلَى عَدَمِ الاسْتِمْتاعِ بِهِ .

وَتَرَى في إعادَةِ تَقْييمِ الإنسانِ : أنَّ الاقتصادَ في خِدْمَتِهِ ، وأنَّهُ مُسَخَّرٌ لَهُ . وأنَّ الْهَدَفَ الأوَّلَ في حياتِهِ ، هُوَ تطبيقُ القِيَمِ الإنسانيَّةِ ، وليسَ جَمْعُ المالِ والرُّكونُ إليهِ . بِمَعنَى : أنَّ الأولَويَّةَ في نشاطِ الإنسانِ ، تكونُ للقِيَمِ الإنسانِيَّةِ ، ثُمَّ تأتي بعدَها مَرْتَبَةُ الاقتصادِ .

فإذا اشتَغَلَ [الإنسانُ] بالاقْتِصادِ مَثلاً : فَيَجِبُ أَنْ يُحاوِلَ ، أَنْ يكونَ أساسُ العَمَلِ فيه ، مُراعاةَ التَّوجيهِ الإسلامِيِّ أولاً في الاقتصادِ : قِيمَةً . . . وإنْماءً . . . وآفاقاً .

لِذا عِندما يُحَدِّدُ أيُّ مُنْتَسِبٍ إلَى الإسلامِ : رأيَ الإسلامِ في الْحِلِّ . . . أَوْ في الْحُرْمَةِ ، لِسَبيلٍ مِنْ سُبُلِ إنْماءِ الاقْتِصادِ وَزِيادَتِهِ ، أَوْ لِوَجْهٍ مِنْ وُجُوهِ الصَّرْفِ لِناتِجِ الاقْتِصادِ : يَجِبُ أَنْ يأخُذَ في الاعْتِبارِ : مَدَى طُغْيانِ الاقْتِصادِ ، أَوْ عدَمِ طُغيانِهِ علَى القِيْمَةِ الإنسانِيَّةِ ، في هذا السَّبيلِ أَوْ في ذاكَ الْوَجْهِ . وبذلكَ يكونُ الرَّأْيُ ، قائِماً علَى الْهَدَفِ الأصيلِ ، في نَظْرَةِ الإسلامِ إلَى الاقْتصادِ .

وليسَ هُناكَ اقتصادٌ إسْلامِيٌّ ... وآخَرُ غَيْرُ إسلامِيٍّ . وإنَّما هُناكَ : نَظْرَةُ الإسلامِ إلَى الاقْتصادِ ، وَنَظْرَةُ غَيْرِ الإسلامِ إليهِ . وغَيْرُ الإسلامِ هوَ المادِّيَّةُ ، الَّتي تُقَدِّسُ الاقْتِصادَ ، وقَدْ تُبالِغُ في تَقْييمِهِ ، فَتَرْفَعُهُ إلَى مُستَوَى الأُلوهِيَّةِ والخالِقِيَّةِ . .

ولكِنْ قَدْ تُقْبَلُ كَلِمَةُ ، الاقتصادِ الإسلاميِّ ، إذا قُصِدَ بهِ : الاقْتِصادُ وِفقاً لِمَنْهَجِ الإِسلامِ ، الْمُؤَسَّسِ علَى نَظْرَتِهِ إليهِ)[1].

هُناكَ إذاً مَنهجانِ مُتَقابِلانِ للاقتصادِ ـ وَهُما نَقيضانِ ، أَوْ ضِدَّانِ لا يَلتَقيانِ ـ حَسَبَ تَوجُّهِ «الْبَهِيِّ» :

الْمَنْهَجُ الأَوَّلُ : مَنهَجُ الإِسلامِ أَوْ نَظْرَتُهُ في الاقْتِصادِ : وهذا الْمَنْهَجُ هُوَ الَّذي ، يُقَدِّرُ الرَّوابِطَ الإِنسانيَّةَ ، في الْعلاقاتِ بينَ أَفْرادِ الْمُجْتَمَعِ ، ويُعطي للقِيَمِ الْعُليا ، أَهميَّةً ورِعايَةً خاصَّةً ، في حياةِ النَّاسِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَغُضَّ شيئاً ، مِنْ قِيمَةِ الاقتصادِ ، بِوَجْهٍ عامٍّ .

الْمَنْهَجُ الثَّاني : مَنْهَجُ الْجاهليَّةِ أَوِ المادِّيَّةِ في الاقتصادِ : تَغْفَلُ نَظْرَةُ هذا المَنْهَجِ ، كَثيراً عَنِ القِيَمِ الْعُليا ، في سبيلِ تَمْجِيدِ الاقْتِصادِ ، كما تَعْتَبِرُهُ سيِّداً للإِنسانِ ، ومَصْدَرَ تَطَوُّرِهِ وحَضارَتِهِ .

قدْ يَنْحدِرُ الاقتصادُ ، في مَنْهَجِ المادِّيَّةِ إلَى الطُّغيانِ ؛ لِيَعْلُوَ علَى الْقِيَمِ الإِنسانيَّةِ في الاعْتِبارِ ، حتَّى تَسْقُطَ هذهِ الْقِيَمُ في مُواجَهَتِهِ ، إِلَى مُستَوَى الْخُضُوعِ والاسْتِسلامِ ، بِحيثُ يَسْتَحيلُ أَنْ تكونَ للإِنسانِ ، إِرادَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ في غَيْبَتِهِ .

كانتِ النَّظْرَةُ الجاهليَّةُ قبلَ الإِسلامِ إِلَى الاقْتِصادِ ، نَظْرَةً مادِّيَّةً ، تفوقُ الرَّوابِطَ الإِنسانيَّةَ بيْنَ الأَفْرادِ ، كما تفوقُ القِيَمَ الإِنسانيَّةَ ، في حياةِ النَّاسِ .

ثُمَّ أَبْرَزَ القُرآنُ الكريمُ أَحْداثَ ووقائِعَ كَثيرةً ، عَنْ مُجْتَمَعاتٍ مادِّيَّةٍ ، انْحرَفَتْ في سُلُوكِها وعلاقاتِها ، وتَمَرَّدَتْ علَى هَدْيِ أَنْبيائِها ورُسُلِها ، فكانَتْ مصائِرُها إلى الْهلاكِ والفَناءِ ، انتقاماً مِنَ اللهِ تعالَى . وفي ذلكَ يقولُ اللهُ تعالَى :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ

---

(١) محمد البهي : الإسلام والاقتصاد ، ص ٣-٨ .

عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ (هود: ٨٤-٨٦).

عَرَضتِ الآياتُ القُرآنيَّةُ الكَريمَةُ أُنْموذَجاً ، مِنْ وقائعِ وآثارِ مُجْتَمَعِ مَدْيَنَ ، قَوْمِ سَيِّدِنا شُعَيْبٍ عليهِ السَّلامُ ، لِتُدَلِّلَ على المَنْهَجِ الماديِّ ، أوِ النَّظْرَةِ الماديَّةِ ، الَّتي مارَسَها القومُ عمليًا ، في مُعامَلاتِهِم التِّجاريَّةِ ، واستَمَرُّوا في طُغيانِهِمُ الاقتصاديِّ ، بالرَّغْمِ مِنْ تحذيرِهِم سُوءَ العاقِبَةِ ، فاستَأصَلَهُمُ اللهُ سُبحانَهُ وتعالى ، نَظَراً لِفَسادِهِم ؛ ولكي يكونُوا عِبْرَةً وعِظَةً ، لِكُلِّ المُنْحَرِفِينَ بَعْدَهُم ، أَصْحابِ السُّلُوكِ الماديِّ .

هذهِ قِصَّةُ شُعَيْبٍ عليهِ السَّلامُ ورسالَتُهُ ، لأهلِ مَدْيَنَ[1] : (وشُعيبٌ هُوَ واحِدٌ مِنهُم ، وليسَ أجْنَبياً عَنهُم [فَحَرِيٌّ بِهِم والأَمْرُ هكذا ، أَنْ يقبلُوا نُصْحَهُ لَهُمْ ، وَيَتَّبِعُوا رِسالَتَهُ ، ولكنْ هَيْهاتَ ، هَيْهاتَ لِمُجْتَمَعٍ ماديٍّ .

أَنْ يكونَ عِندَهُ : التَّهْذِيبُ الرُّوحِيُّ ، والنُّفُوسُ المُهَذَّبَةُ الزَّاكِيَةُ ، والشَّفافِيَّةُ السُّلُوكِيَّةُ . دعاهُم شُعيبٌ إذاً إلى أَمْرَيْنِ هامَّيْنِ اثْنَيْنِ ، هُما :

الأَمرُ الأَوَّلُ : تَوْجِيهُهُم نَحْوَ [وَحْدانيَّةِ] الأُلوهيَّةِ وعبادَةِ اللهِ تعالى ، دونَ ما عَداهُ مِنْ كائِناتٍ أُخْرَى ، جُعِلَتْ كَذِباً : شُرَكاءَ للهِ تعالَى .

الأَمْرُ الثاني : أَمْرَهُم بالعَدْلِ في التِّجارَةِ ؛ [لأنَّهُم كانُوا يَبْخَسُونَ] الكَيْلَ والميزانَ .

---

(١) مَدْيَن : مدينة كانت تقع في الجهة الشَّرقيَّةِ ، من خليج العقبة ، وأهلُ مدين ينحدرون من قبائلَ عربيَّةٍ ، كانت تجاور الكنعانيين ، كما كانوا أهل تجارة ، خاصَّة بالحُبوبِ . وقيل : هي جبال تقع في شمال غرب السعودية ، على البحر الأحمر ، تتفرَّع مِن جبال الشَّراة [في الأردن]. انظر ، أكرم البستاني : المنجد في اللغة والأعلام ، ص٥٢٧.

نَصَحَ شُعَيْبٌ قَوْمَهُ بالْعَدْلِ في التَّبادُلِ التِّجاريِّ ، إذْ أَكَّدَ لَهُم أَنَّ وَضْعَهُمُ المالِيَّ - مِنْ غَيْرِ حاجةٍ إلى بَخْسِ الْكَيْلِ والميزانِ في المُعامَلاتِ ، - هُوَ وَضْعٌ يَجْعَلُهُم مِنْ أَهْلِ الثَّراءِ . كَما أَكَّدَ لَهُم في الْوَقْتِ نَفْسِهِ : أَنَّهُ يَخشَى عليهم ، مِنِ اسْتِمرارِهِم في مُباشَرَةِ الظُّلْمِ ، أَنْ ينالَهُم عذابُ اللهِ سُبحانَهُ وتعالَى في دُنياهُم ، فَتَضيعَ عليهم أموالُهُم ، ثُمَّ يُصبِحُوا أَثراً بعدَ عَيْنٍ .

هَكَذا يكونُ عذابُ اللهِ تعالَى لَهُم ، عذاباً شامِلاً ومُحِيطاً ، بِكُلِّ شيءٍ لَهُم . لِذا كَرَّرَ نُصْحَهُ لَهُم ، بالابْتِعادِ عنِ الظُّلْمِ ، في الْمُعاملاتِ التِّجاريَّةِ ، والانتهاءِ مِنْهُ إلى غَيْرِ رَجْعَةٍ إليهِ ؛ لأَنَّ الاسْتِمرارَ فيهِ ، اسْتِمْرارٌ في الفسادِ في الأرضِ ، وعاقِبَةُ الْفسادِ [الهلاكُ والدَّمارُ] [لكنَّهُ] لَمْ يُجْدِ مَعَهُم نُصْحُ شُعَيبٍ لَهُم ، وَتَحْذِيرُهُ إيّاهُم مِنْ عاقِبَةِ ظُلْمِهِم في مُعامَلاتِهِمُ التِّجارِيَّةِ ، فكانتِ النَّتيجةُ وبالاً عليهم)[1].

يُسْتَنتَجُ مِن المَنْهَجِ الإسلامِيِّ في الاقتصادِ ، بِأَنَّهُ يَسْتَنِدُ علَى قواعِدَ تَنْظيميَّةٍ ، شأنُها تَنْظِيمُ المُعاملاتِ الماليَّةِ بيْنَ النَّاسِ ، بِلا ظُلْمٍ ولا اعتِداءٍ ، ولا شُحٍّ ولا خُيَلاءَ ، تَسُودُها الرَّحْمَةُ والتَّعاوُنُ . فَكانَ مِنْ أهمِّها وأَبْرَزِها :

- أَنَّ الإسلامَ يَعْتَبِرُ المالَ الصَّالحَ ، هُوَ قِوامُ الْحياةِ ، لِذا يَجِبُ الْحِرْصُ عليهِ ، بِحُسْنِ تَثْمِيرِهِ وتَدْبِيرِهِ .
- حَرَّمَ الإسلامُ في مَنْهَجِهِ الاقْتِصادِيِّ ، كُلَّ مواردِ الْكَسْبِ الْخَبِيثِ ، كالسَّرِقَةِ والْغِشِّ ، والرِّبا ، والقِمارِ أَوِ الْمَيْسِرِ ، والخَمْرِ والاحْتِكارِ .
- حَثَّ الإسلامُ علَى الإنْفاقِ في سبيلِ اللهِ تعالى ، بِكُلِّ مجالاتِ الْخَيْرِ . كَما يَجِبُ التَّكافُلُ والتَّعاوُنُ علَى الْبِرِّ والتَّقْوَى ، بينَ أفرادِ الْمُجْتَمَعِ .
- شَرَعَ الإسلامُ تنظيمَ المُعاملاتِ الماليَّةِ ، في حُدودِ المَصْلَحَةِ العامَّةِ ، لِكُلٍّ مِنَ الْفَرْدِ والْمُجْتَمَعِ ، وأَوْجَبَ احْتِرامَ الْعُقُودِ ، والدِّقَّةَ في شُؤونِ التَّعامُلِ .

---

(١) محمد البهي : التفسير الموضوعي للقرآن الكريم « تفسير سورة هود»، ص٧١، ٧٢.

الاقتصادُ في الإسلامِ إذاً يقومُ مَنْهَجُهُ على الْعَدْلِ والتَّوازُن ، بيْنَ الفَرْدِ والْمُجْتَمَعِ : (التَّوازُنُ الَّذي يَطْلُبُهُ الدِّينُ في الْفَرْدِ : بحيثُ [تَكونُ] لَهُ الْحُرِّيَّةُ ، ولكِنْ في نِطاقِ الإنسانيَّةِ . . . والتَّوازُنُ في الْمُجْتَمَعِ : يكونُ [بوجُودِ] التَّفاضُلِ بينَ طَبقاتِهِ ، ولكنْ بِغَيْرِ طُغْيانٍ .

وليْسَ التَّوازُنُ الَّذي تَطْلُبُهُ الماركسيَّةُ : الَّذِي هُوَ سَلْبُ الْجَمِيعِ ، لِما يَمْلِكُ الْجَميعُ ، مِنْ كُلِّ شيءٍ ، [حتَّى] مِنْ مالٍ وإنْسانِيَّةٍ علَى السَّواءِ . [الدِّينُ الإسلامِيُّ] يَطْلُبُ التَّوازُنَ [دائِماً حيثُ] تُطْلَبُ الْعَدالَةُ [سواءٌ بسواءٍ ، لِكُلِّ فَرْدٍ في الْمُجْتَمعِ] .

[بِعَكْسِ] الماركسيَّةِ [تماماً ، الَّتِي] تَرَى [نَفْسَها بأنَّها] تَطْلُبُ التَّوازُنَ . [لكنَّها في الحقيقَةِ] تَطْلُبُ تَمليكَ الدَّولَةِ دونَ الأفْرادِ . [فالفَرْقُ كبيرٌ وبعيدٌ جِدًّا ، بينَ المَنْهَجِ الاقتصادِيِّ في الإسلامِ وبيْنَ الفلسَفَةِ الماركسيَّةِ الْمُدَّعاةِ ، الَّتِي أَثْبَتَتْ تَجْرِبَتُها ، بأنَّها مِعْوَلُ هَدْمٍ لاقتصادِ الْفَرْدِ والْمُجْتَمَعِ ، علَى حَدٍّ سواءٍ .

فَأَمَّا التَّوازُنُ : في الاقتصادِ الإسلامِيِّ فَهُوَ] توازُنُ تَوْزِيعٍ وتَقابُلٍ ، لا تَوازُنَ سَلْبٍ ، ثُمَّ تَسْخِيرٍ . أَمَّا مَوْقِفُ الإسلامِ : في تَوازُنِ الْجماعَةِ ، في الجانِبِ الاقتصادِيِّ ، وفي تَمْليكِ الثَّرْوَةِ ، فَقَدْ وَضَعَ مَبْدأَ الميراثِ ، بَيْنَ جُمْلَةٍ مِنَ الْمبادئِ لِضَمانِ التَّوازُنِ ، إذِ الْمِيراثُ تَفْتِيتٌ لِرأْسِ المالِ ، وهُوَ بِذلكَ يَحُولُ دونَ وُقُوعِهِ في يَدِ قِلَّةٍ تَحْتَكِرُهُ ، وبالتَّالي يَحُولُ دُونَ طُغْيانِ الرَّأْسْماليَّةِ ، وَمِنْ جانِبٍ آخَرَ هُو تَمْليكٌ للأَفْرادِ ، وليسَ للدَّوْلَةِ . . . وَبِذلكَ يَحُولُ دونَ حِرْمانِ الأَفْرادِ مِنَ التَّمَلُّكِ ، كما يَحُولُ دونَ إذْلالِ الأفرادِ لِما يُسمَّى الدَّولَةُ .

الإسلامُ [إذاً] يؤكِّدُ إنسانِيَّةَ الإنسانِ ؛ [مِنْ خِلالِ نَظْرَتِهِ للاقتصادِ وغَيْرِهِ] ؛ لأَنَّهُ يرْتَفِعُ بِهِ [أَي بالإنسانِ] فَوْقَ حَيَوانِيَّتِهِ . . . ويؤكِّدُ بالتَّالي القيمَةَ الْعُليا في الوجُودِ كُلِّهِ ، وهيَ خالِقُ هَذِهِ الإنْسانِيَّةِ .

الإسلامُ لا يَرَى أنَّ الإنسانَ تَخلُقهُ الأرضُ، أوْ يَخلُقهُ المُجتَمَعُ. وإنَّما خالِقهُ: هُوَ خالِقُ الأرضِ والمُجتَمَعِ، وَهُوَ اللهُ سُبحانَهُ وتعالَى... والإسلامُ بهَذا يُقابِلُ الماركسيَّةَ [مُقابَلَةَ تَضادٍ] تماماً.

وأخيراً إنَّ الانْحِرافَ، عَنِ [مَنْهَجِ] التَّوازُنِ في الجماعَةِ، ذاتِ الإيمانِ باللهِ تعالَى، لا يَرْجِعُ إلَى ضَعْفٍ ذاتِيٍّ، في قِيْمَةِ الدِّينِ كَدِيْنٍ، وإنَّما يَرْجِعُ إلَى ضَعْفٍ في قُوَّةِ الإنْسانِ الَّتِي تُصاحِبُهُ [بمعنى الَّتِي تُصاحِبُ الدِّينَ]. سواءٌ أكانَتْ قُوَّةَ السُّلْطَةِ، أوْ تِلْكَ القُوَّةُ الَّتِي تَتَمَرَّسُ علَى فَهْمِهِ [أيِ الدِّينِ] وَعَرْضِهِ)[1].

يستَطِيعُ المُتَتَبِّعُ للقَواعِدِ السَّابِقَةِ، الَّتِي قامَ عَلَيها بناءُ المَنْهَجِ الإسلامِيِّ في الاقْتِصادِ، أَنْ يُدْرِكَ بِوُضُوحٍ التَّمَيُّزَ الَّذِي يَتَمَتَّعُ بِهِ الاقْتِصادُ الإسلامِيُّ، عَمَّا يَراهُ النَّاسُ اليومَ، مِنْ أَنْظِمَةٍ رأسْماليَّةٍ أَوْ شُيُوعِيَّةٍ.

فَهُوَ يُخالِفُ كُلاًّ مِنهُما علَى حِدَةٍ، ويُخالِفُهُما جميعاً في أُمورٍ مُشْتَرَكَةٍ، فَضْلاً عَنْ أَنَّهُ سَبَقَهُما في التَّجْرِبَةِ العَمَلِيَّةِ النَّاجِحَةِ، بأكْثَرَ مِنْ خَمْسَةَ عَشَرَ قَرْناً.

وبِنَظْرَةٍ مُنْصِفَةٍ يَجِدُ الباحِثُ، أنَّ المنهجَ الرأسماليَّ في الاقتصادِ، يقومُ علَى تقْدِيسِ حُرِّيَّةِ الفَرْدِ، لِيَمْتَلِكَ، ويُنَمِّيَ، ويُنْفِقَ، ما شاءَ مِنَ الأَمْوالِ، المَنْقُولَةِ وغَيْرِ المَنْقُولَةِ، مَتَى يشاءُ وكَيفَما يشاءُ، دونَ قُيُودٍ تُذْكَرُ علَى وسائِلِ تَمَلُّكِهِ وتَنْمِيَتِهِ وإنْفاقِهِ.

أمَّا حَقُّ المُجْتَمَعِ علَى الفَرْدِ: (في مالِهِ وفي مُراقَبَتِهِ، ومُحاسَبَتِهِ علَى تَمَلُّكِهِ وتَثْمِيرِهِ وإنْفاقِهِ، فَحَقٌّ ضَعِيفٌ يُشْبِهُ المَعْدُومَ، ولا يَجِدُ في داخِلِهِ رَقابَةً ذاتِيَّةً، تَجْعَلُهُ يَحْتَرِمُ هذا الحَقَّ ويَرْعاهُ، بلْ يَحْتالُ عليهِ، لِيَتَخَلَّصَ مِنْهُ تَحْتَ سَمْعِ القانُونِ وبَصَرِهِ.

---

(١) محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص٣٢٣، ٣٢٤.

[وأَمَّا الْمَنْهَجُ الاقتصادِيُّ الشُّيُوعِيُّ ، فإنَّهُ] : يَهْدُرُ قيمَةَ الْفَرْدِ وحُرِّيَّتَهُ . . . فلا يَمْلِكُ أَرْضاً أَوْ مَصْنَعاً أَوْ عَقاراً ، [ولا غَيْرَ] ذلكَ مِنْ وسائِلِ الإنْتاجِ ، بَلْ يَجِبُ عليهِ أَنْ يعمَلَ أَجيراً للدَّولَةِ ، الَّتِي تَمْلِكُ كُلَّ وسائِلِ الإنتاجِ ، [بَلْ أَيْضاً تُدِيرُها].

أَمَّا الإسلامُ فَيَجْعَلُ الاقتصادَ وسيلَةً إلَى غايَةٍ كُبْرَى ، [هِيَ] : أَلاَّ يَشْتَغِلَ النَّاسُ بِهَمِّ الْعَيْشِ ، ومَعْرَكَةِ الْخُبْزِ [وضَحاياها] ، عَنْ مَعْرِفَةِ اللهِ تعالَى ، وَحُسْنِ الصِّلَةِ بِهِ ، والتَطَلُّعِ إلَى حياةٍ أُخْرَى ، هِيَ خَيْرٌ وأَبْقَى)[1].

إذاً يُخالِفُ الإسلامُ في مَنْهَجِهِ الاقْتِصادِيِّ ، تلكَ الأَنْظِمَةَ الْوَضْعِيَّةَ ، فيما هُوَ أَعْمَقُ مِنْ حُرِّيَّةِ الْفَرْدِ ، ومَنْفَعَةِ الْمُجْتَمَعِ ، إنَّهُ يُخالِفُها كُلَّها في الْغايَةِ والاتِّجاهِ ، والأَساسِ والرُّوحِ ، وفي الوظيفَةِ والْمُهِمَّةِ ؛ ذلكَ لأَنَّ الاقتصادَ ، مِنْ وجْهَةِ نَظَرِ الإسلامِ ، هُوَ خادِمٌ للقِيَمِ والأَخلاقِ الإسلامِيَّةِ . إنَّهُ يُخالِفُ الرأسمالِيَّةَ ، الَّتِي تُسْرِفُ في تَدْليلِ الْفَرْدِ ، حَتَّى تَضَخَّمَ وطَغَى ، كما يُخالِفُ الشُّيُوعِيَّةَ ، الَّتِي تُسْرِفُ في تَحطِيمِ الْفَرْدِ ، وإثْقالِهِ بالواجِباتِ ، حتَّى ضَمُرَ وانْكَمَشَ .

وليسَ أَدَلَّ علَى فَشَلِ الاقتصادِ الرأسْمالِيِّ ، مِمَّا هُوَ واقِعٌ بِهِ في أيامِنا هَذِهِ ، مِنْ شِبْهِ انْهيارٍ اقتصادِيٍّ عالَمِيٍّ ، وفسادٍ إداريٍّ سَحيقٍ . والسَّبَبُ الْمُباشَرُ في هَذا التَّرَدِّي الْماليِّ الآنَ هُوَ : لأَنَّ الأَنْظِمَةَ المادِّيَّةَ الْوَضْعِيَّةَ ، مَفْصُولَةٌ تَماماً عَنِ الأَخلاقِ السَامِيَةِ ، والْمُثُلِ الْعُليا .

لكنَّ الاتِّجاهَ والمَنْهَجَ الإسْلامِيَّ في الاقتصادِ ، هُوَ النِّظامُ الْعَدْلُ الْوَسَطُ ، الَّذِي يُوازِنُ : بينَ الْحُقُوقِ والواجِبات ، وبيْنِ الرُّوحِ والجِسَدِ .

هُناكَ خُطْوَةٌ أُخْرَى في مَنْهَجِ الإسلامِ ، لِتَحْقيقِ إعادَةِ التَّوازُنِ ، بيْنَ قِيمَةِ الاقْتِصادِ ، والْقِيَمِ الإنسانِيَّةِ ، إذْ إنَّهُ : (يَكْشِفُ عَنِ الْوَضْعِ الطَّبيعِيِّ لِقِيْمَةِ الاقْتِصادِ ، وهِيَ قِيْمَةٌ لا تُضِيفُ شيئاً ، إلَى الْمُسْتَوَى الإنْسانِيِّ في الإنْسانِ . هِيَ

---

(١) يوسف القرضاوي : ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨.

قِيْمَةٌ مُنْفَصِلَةٌ تَماماً ، عَنْ هَذا الْمُسْتَوى الإِنْسانِيِّ . عَلَى مَعْنَى أَنَّ الإِنسانَ تُقَدَّرُ قِيْمَتُهُ ، بِمَدَى دَرَجَتِهِ في هذا المُستَوَى ، وليسَ بِمَدَى مِلْكِيَّتِهِ في الاقْتِصادِ .

[لِذا فإنَّ أَمْوالَ] وَثَراءَ الكافِرِ ـ بالقِيَمِ الإِنسانِيَّةِ ، والواقِعِ تَحْتَ تأْثِيرِ الاتِّجاهِ الْمادِّيِّ ، في طُغيانِ الاقْتِصادِ ـ لا يَمْنَحانِهِ شيئاً في قِيمَتِهِ الذّاتِيَّةِ .

وعِندما يَتَحَدَّثُ القُرآنُ الْمَجِيدُ ، عَنْ فَتْحِ مَجالِ الاقْتِصادِ ، أَمامَ الكافِرِ في الدُّنيا ، وَعَدَمِ احْتِجابِ الرِّزْقِ عِنْهُ مهما بلغَ ، رَغْمَ كُفْرِهِ ، فيقُولُ اللهُ تعالَى :

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء:١٨-٢١).

إِذْ عِندما يَفْتَحُ القُرآنُ الكَرِيمُ مَجالَ الاقْتِصادِ ، أَمامَ الكافِرِ عَلَى هَذا النَّحْوِ ، رَغْمَ كُفْرِهِ ـ وربَّما يكونُ حَظُّهُ فيهِ أَفضلَ مِنْ حَظِّ الْمُؤْمِنِ ـ فإنَّ القُرآنَ العَظِيْمَ يَسْعَى ، إِلَى : أَنْ يَرْفَعَ الْمُبالَغَةَ عَنْ قِيمَةِ الاقْتِصادِ ، وأَنْ يُعِيدَ إِلَيهِ الْقِيمَةَ الْحَقِيقِيَّةَ ، الَّتِي يَراها لَهُ ، كَرِسالَةٍ تَقُومُ أَوَّلاً وبالذّاتِ عَلَى الرَّوابِطِ الإِنسانِيَّةِ ، قَبْلَ الرَّوابِطِ الاقْتِصادِيَّةِ .

إِنَّ الَّذي تَحُضُّ عليهِ هَذِهِ الآياتُ الكَرِيماتُ ، هُوَ : مُوازَنَةٌ في التَّقْيِيمِ ، بَيْنَ العامِلِ الاقْتِصادِيِّ ، والعامِلِ الإِنسانِيِّ . وإِذا كانَ العامِلُ الاقتصادِيُّ ، يَتمثَّلُ في كُلِّ ما هُوَ مادِّيٌّ ، في الثَّرْوةِ والْمُلْكِ ، فالعامِلُ الإِنسانِيُّ يَنْبَثِقُ عَنِ الْقِيَمِ الإِنسانِيَّةِ : في الإِيمانِ بها ، وفي تَطْبِيقِها . وبالأَخَصِّ : قِيَمِ الْعَدْلِ . . . والإِحْسانِ . . . والرَّحْمَةِ . . . والتَّعاوُنِ .

وفي الْمُوازَنَةِ يُسْتَخْلَصُ مِنَ القُرآنِ الكَرِيمِ ، هُنا : أَنَّهُ يُؤْثِرُ العامِلَ الإِنسانِيَّ عَلَى العامِلِ المادِّيِّ الْمُجَرَّدِ . ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ . أَيْ في

الاقتصادِ ، إذْ ربَّما يكونُ الكافِرُ أكْثرُ حَظًّا فيهِ مِنَ الْمؤْمِنِ . ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ وهَذا الْجزاءُ الأكْبَرُ في الآخِرَةِ هُوَ للمؤْمِنِ . أيْ هُوَ لِصاحِبِ العامِلِ الإنْسانِيِّ ، وليسَ لِصاحِبِ الْحَظِّ الأوْفَرِ في الثَّراءِ)[1].

فالمنْهَجُ الْوَصْفِيُّ التَّحْلِيلِيُّ الَّذِي يَعْتَمِدُ عليهِ «الْبَهِيُّ»، في نَظْرَتِهِ إلى الاقتصادِ : يَسْتَمِدُّهُ مِنَ الإسلامِ ، الَّذِي ليسَ مِنْ أهْدافِهِ تَحْقِيرُ الاقتِصادِ ، وليسَ مِنْ شأْنِهِ صَرْفُ أنْظارِ النَّاسِ عَنْهُ ، بلْ لا بُدَّ مِنَ التَّوازُنِ الْمُنَظَّمِ بينَ الاقتصادِ ، والسَّعْيِ إليهِ مِن جِهَةٍ ، وبينَ الحالَةِ الإنسانيَّةِ وقِيَمِها مِنْ جِهةٍ أُخرَى .

إنَّما مَنْهَجُ «البهيِّ» في نَظْرَتِه إلى الاقتصادِ ، يَهْدِفُ أصلاً : إلَى إعادَةِ الاعْتِبارِ القِيَميِّ للإنسان ؛ لأنَّهُ يَعْتَبِرُهُ المَصدَرَ الأساسَ للحَضارَةِ الإنسانيَّةِ ، وهيَ الْحَضارَةُ الْمُرْتَكِزَةُ علَى الْقِيَمِ الْعُليا ، في حياةِ النَّاسِ ومُجْتَمَعاتِهِم .

كَما إنَّهُ يَدْعُو إلَى إعادَةِ الاعتِبارِ الواقِعِيِّ للاقْتِصادِ ، كوَسيلَةٍ مِنْ وسائلِ حياةِ الإنسانِ ، ومَعِيْشَتِهِ علَى هَذِهِ الأرْضِ ، وكَمَصْدَرٍ للحَضارَةِ الْمادِّيَّةِ ، الَّتِي يقومُ بها الإنسانُ نَفْسُهُ ، مُسْتَعيناً بالمالِ والاقتصادِ ، فالإنْسانُ في واقِعِ الحالِ ، هُوَ العامِلُ الْمُشْتَرَكُ في الْحَضارَتَيْنِ : الإنسانيَّةِ والمادِّيَّةِ .

لِذلكَ فإنَّ الْمَنْهَجَ الاقتصادِيَّ الَّذِي يُسْتَنْبَطُ ، مِنَ الإسلامِ ، يقومُ على : (حُرِّيَّةِ الْعَقْدِ ، والْبُعْدِ عَنِ الْغَبْنِ[2] فيهِ ، ولَو كانَ مُتَرَقَّباً : كالْغَرَرِ[3] والاحْتِكارِ .

---

(١) محمد البهي : الإسلام والاقتصاد ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) الْغَبْنُ في البيع والشِّراء : الْوَكْسُ ، غَبَنَهُ يَغْبِنُهُ غَبْناً : أيْ خَدَعَهُ ، وقد غُبِنَ ، فهو مَغْبُونٌ ، وقد حُكِيَ بفتحِ الباء : الْغَبَنُ . انظر ، محمد بن مكرم بن منظور : لسان العرب ، مج ١٠ ، ١٥/١٠ .

(٣) الْغَرَرُ : هو الْخَطَرُ ، وقيل بيعُ الغررِ المنهيُّ عنه : هو ما كان لهُ ظاهِرٌ يَغُرُّ المُشتريَ ، وباطِنٌ مجْهُولٌ ، يُقالُ : إيَّاكَ وبيعَ الغَرَرِ ، قال : بيعُ الْغَرَرِ أنْ يكون علَى غيْرِ عُهْدَةٍ ولا ثِقَةٍ . ويدخل في بيع الغرر : البُيوعُ المجهولَةُ ، كبيعِ السَّمكِ في الماءِ والطَّيْرِ في الهواءِ . انظر ، المرجع السابق ، ص٤٢ .

وهكَذا في جانبِ المال: يَنْظُرُ الإسلامُ إلَى مِلْكِيَّةِ الْمالِ، بأنَّها مِلْكِيَّةٌ خاصَّةٌ، وأمَّا مَنْفَعَةُ الْمالِ، فَهِيَ مَنْفَعَةٌ عامَّةٌ. وفي هذا يقُولُ اللهُ تعالَى:

﴿ وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ (النساء:٥).

[تُحَدِّدُ الآيةُ الكريمةُ] الإجْراءَ في أموالِ السُّفهاءِ[1]، لِتَجْعَلَهُ خِدْمَةً للمَصْلَحَةِ العامَّةِ، وَهِيَ دليلٌ علَى: أنَّ حَقَّ مَنْ لا يَمْلِكُ الْمالَ، في الْمُجْتَمَعِ الإسلامِيِّ، هُوَ قائِمٌ فِعْلاً في مَنْفَعَةِ الْمالِ، لِمَنْ يَمْلِكُهُ، [وهَذِهِ اللَّفْتَةُ القُرآنِيَّةُ في المالِ] تَحُولُ دُونَ التَّواكُلِ واللَّامُبالاةِ في الْعَمَلِ، كما هُوَ الْحالُ في الْمِلْكِيَّةِ الْعامَّةِ، في النِّظامِ الشُّيُوعِيِّ [مَثَلاً].

ثُمَّ يُحِدُّ [النِّظامُ الاقتصاديُّ في الإسلامِ أيضاً] مِنَ الأنانيَّةِ، والانْدِفاعِ في فِتْنَةِ الْمالِ، وَإغرائِهِ علَى الْعَبَثِ والْفسادِ، في الْمِلْكِيَّةِ الْخاصَّةِ، كما هِيَ في النِّظامِ الرأسْمالِيِّ)[2].

عِلْماً أنَّ النِّظامَ أوِ المَنْهَجَ الإسلامِيَّ في الاقْتصادِ، ليسَ مِنْ وَضْعِ الْبَشَرِ، ولا مِنْ صُنْعِ فِئَةٍ مِنَ النَّاسِ.

إنَّهُ شَرْعُ اللهِ سُبحانَهُ وتعالَى، الَّذِي يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ، والَّذِي يُرِيدُ الْيُسْرَ لِعِبادِهِ، ولا يُرِيدُ لَهُمُ الْعُسْرَ. إنَّهُ سُبحانَهُ وتعالَى رَبُّ الْجَمِيعِ، بلا جَوْرٍ ولا مُحابَةٍ إطْلاقاً؛ لذا فإنَّ تَشريعَهُ عَدْلٌ مُطْلَقٌ.

فَاللهُ تعالَى هُوَ ربُّ الأغنياءِ والفقراءِ، والْعُمَّال وأصْحابِ الْعَمَلِ. لِذلكَ فإنَّ المالَ في الإسلامِ، يَعْنِي: (كلُّ ما لهُ قِيْمةٌ تُلْزِمُ مُتْلِفَهُ وإنْ قَلَّتْ. وعندما يُحافِظُ

---

(١) السُّفهاءُ: الْجُهَّالُ، مفردها سَفيهٌ، والأُنثى سَفيهةٌ، والسَّفَهُ في الأصْلِ: الْخِفَّةُ والطَّيْشُ، والسَّفيه: الخفيف العقل. انظر، محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، مج ١٠، ٢٨٨/١٠.

(٢) محمد البهي: الإسلام في حلّ مشاكل المجتمعات الإسلاميّة المعاصرة، ص٤٢-٤٤.

القُرآنُ الكريمُ علَى أَمْوالِ السُّفهاءِ . . . أي هِيَ لَهُم إذا احْتاجُوا ، [كأَنْ يُنْفَقَ عليهِم منها ، وبالتَّالي تَعودُ لَهُم شَرعاً ، عندَ زوالِ السَّفَهِ أيضاً] .

وعندما يأتي لَفْظُ ﴿ وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ فأموالُكُم في الآيَةِ الكريمَةِ [أيْ لجميعِ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ] الَّتِي تَقِي أَعْراضَكُم ، وتَصُونُكُم ، وتُعْظِمُ أَقْدارَكُم)[1].

يُشَجِّعُ التَّوجُّهُ الإسلامِيُّ ومناهِجُهُ [الاقتصاديَّةُ] ، اقْتِناءَ المالِ [وحيازَةَ الأَشياءِ]؛ لأنَّها أُمورٌ فِطْرِيَّةٌ في الإنسانِ ، وإنَّ الْجِبِلَّةَ السَّوِيَّةَ تَتَناغَمُ [مَعَ الإسلامِ].

لذلكَ كَفِلَ الإسلامُ حُرِّيَّةَ التَّمَلُّكِ ، لجميعِ أَفرادِ المُجتَمَعِ ، بحيثُ لا يَطْغَى المالُ والانحرافُ بِهِ ، في غَيْرِ وجُوهِهِ المَشْرُوعَةِ .

فالمُجتمعُ المُسلِمُ في اقْتِصادِهِ ، ليسَ مُجْتمعاً أَرْضِيّاً خالِصاً ، وليسَ مُنْعَزِلاً عَنِ السَّماءِ انْعِزالاً تامّاً ، بلْ هُوَ مُرْتَبِطٌ باللهِ تعالَى الخالقِ سُبحانَهُ ، الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأَرضِ . وأَمَّا مِلْكِيَّةُ الإنسانِ للمالِ والْمُقْتَنَياتِ : إنَّما هُوَ اسْتِخْلافٌ عليها فقَط ؛ لأنَّ المالِكَ الحقيقِيَّ هُوَ اللهُ تعالَى ، فاطِرُ الأشياءِ ، والدَّليلُ على ذلكَ . يقولُ اللهُ تعالَى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(الأنعام:١٦٥).

تَضَمَّنَتِ الآيةُ الكريمةُ ، خِطاباً مُوَجَّهاً إلَى الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ ، لافِتاً أَنْظارَهُم :

---

(١) محمد بن عبد الحق بن عطية الأندلسي : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، المعروف «بتفسير ابن عطية» ، تحقيق وتعليق محمد الشّافعي ، مؤسسة دار العلوم ، الدوحة ، قطر ، ط١ ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ، ٣/٤٩٧ .

بأنَّهُم خِتامُ الأُمَمِ وآخِرُهُم ، كَما أنَّ الرَّسُولَ مُحَمَّداً ﷺ ، هُوَ خَاتِمُ[1] الأَنْبياءِ والْمُرْسَلِينَ ، فأَنْتُم أيُّها المُسلمونَ ، قَدْ (خَلَفْتُمُ الأُمَمَ السَّابِقَةَ ، أَوْ يَخْلُفُ بَعْضُكُم بَعْضاً ، أَوْ جَعَلَكُم خُلَفاءَ اللهِ تعالَى في أَرْضِهِ ، [كَما أنَّ تَفاضُلَ النَّاسِ في الأَرْزاقِ ، هُوَ قانُونُ الْحياةِ ، وإرادَةُ اللهِ تعالَى ، في خَلْقِهِ] . فَرَفَعَ بَعْضَكُم بالشَّرَفِ والْغِنَى ، دَرَجاتٍ مُتَفاوِتَةً ؛ لِلنَّظَرِ ماذا تَعْمَلُونَ ، مِنَ الشُّكْرِ وَضِدِّهِ)[2].

تداوُلُ الْمُجْتَمَعاتِ البشَرِيَّةِ علَى الأَرْضِ إذاً ، سُنَّةٌ كَونيَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالَى ، ثمَّ إنَّ التَّفاضُلَ بَيْنَ النَّاسِ في الأَرزاقِ ، إنَّما هُوَ مِنْ بابِ الاخْتِبارِ والابْتِلاءِ .

لابتلاءِ الْغَنِيِّ في أَمْوالِهِ وَغِناهُ . تُراهُ أَأَعْطَى حقَّ الآخَرِيْنَ مِنْ ثَرائِهِ ، أَمْ لا؟ .

هَلِ اعْتَدَلَ في الإنْفاقِ مثلاً؟ . وما مجالاتُ إنْفاقِهِ للمالِ؟ أكانتْ فيما ينْفَعُ الأُمَّةَ ، وما يُقَدِّمُ اقتِصادَها في اتِّجاهِ التَّطَوُّرِ الإيْجابِيِّ ، والرَّخاءِ الْمَعِيْشِيِّ؟ أَمْ أُنْفِقَتْ أَمْوالُهُ في الإيْذاءِ والضَّرَرِ؟! .

كَذلكَ لابتِلاءِ الفقيرِ في فَقْرِهِ أيضاً : هَلْ يَصْبِرُ وَيَتَحَمَّلُ الفَقْرَ والْحِرْمانَ؟ . هلْ يَسْتَمِرُّ على الإيمانِ باللهِ تعالَى ، أَمْ يَكْفُرُ بِهِ؟ هلْ يَمْتَلِئُ قلبُهُ حِقْداً على الآخَرِيْنَ لا سيَّما الأَثْرياءِ ، أَمْ يَتَوَكَّلُ علَى اللهِ تعالَى ، ثُمَّ يأْخُذُ بأَسْبابِ الغِنَى؟.

فَتَداوُلُ الْمُجْتَمعاتِ البشَرِيَّةِ ، في منهَجِ الاقتصادِ الإسلامِيِّ ، ليسَ هُوَ تَعاقُبُ الأَجْيالِ فَحَسْبُ . إنَّما هو : (تَغْييرُ مُجْتَمَعٍ إنسانيٍّ بِمُجْتَمَعٍ إنْسانيٍّ آخَرَ . . .

---

(١) الخاتِم والخِتامُ : مُتقاربانِ في المعنى ، إلاَّ أنَّ الخاتِمَ الاسمُ ، والخِتامُ المصدَرُ . والخاتِمُ والخاتَمُ : من أسماءِ النَّبيِّ ﷺ . انظر ، محمد بن مكرم بن منظور : لسان العرب ، مج٤ ، ٤/٢٥ .

(٢) محمد بن محمد العمادي «المعروف بأبي السعود ، والمتوفى سنة ٩٥١هـ» : تفسير أبي السعود ، المسمى «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لا . ط ، لا . ت ، ٣/٢٠٨ .

هُوَ قِيامُ مُجتَمَعٍ صالحٍ علَى أنْقاضِ مُجتَمَعٍ فاسِدٍ . . . هُوَ القَضاءُ علَى مُجتَمَعٍ ماديٍّ ، طَغَى بِماديَّتِهِ ؛ لِيَحِلَّ مَحلَّهُ مُجتَمَعٌ إنسانِيٌّ : يُؤمِنُ بالقِيَمِ الإنسانِيَّةِ العُليا .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ . أي جعَلَ بَعْضَكُم يَخلُفُ بعضاً ، علَى هذهِ الأرْضِ : بِعَمارتِها وإصْلاحِها . . . وبِمُقاوَمَةِ المفاسِدِ ، والرُّجُوعِ إلَى اللهِ تعالَى ، في العَمَلِ والتَّصرُّفاتِ . . . بما يَسيرُ وفْقَ هِدايةِ اللهِ تعالَى في الأموالِ ، منْ مِلْكِيَّتِها مِلْكِيَّةً خاصَّةً . . . ومَنْفَعَتِها مَنفَعَةً عامَّةً : لِمَنْ يَملِكُ ، ومَنْ لا يَملِكُ .

اللهُ سُبحانَهُ وتعالَى بَعْدَ ذلكَ : لا يَتْرُكُ مَنْ يَنحرِفُ ، عَنْ هِدايَتِهِ [في المالِ والاقْتصادِ ، وغيرِ ذلكَ ، مِمَّا يَترَتَّبُ عليهِ مِنْ آثامٍ أُخرَى] . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ . وفي الوَقْتِ نَفْسِهِ : فإنَّ اللهَ تعالَى ، يَغفِرُ خَطأَ مَنْ تابَ وعادَ وأنابَ إليهِ ، في : اعْتِقادِهِ . . . وعَمَلِهِ . . . وسُلُوكِهِ ، ويَشمَلُهُ بِرَحْمَتِهِ) [1].

هكَذا تَتعاقَبُ الأُمَمُ والأجيالُ ، يَخلُفُ بَعضُها بَعضاً ، فَكُلَّما اشْتَطَّتِ المُجتَمعاتُ بُعْداً ، وتَنكَّبَتِ الطَّريقَ عَنْ هَديِ اللهِ تعالَى ، ثُمَّ شَرَّعَتْ لِنَفسِها بِنَفْسِها ، مُخالِفَةً لِنواميسِ اللهِ تعالَى ، في أكْوانِهِ وأحْكامِهِ ، وقوانِينِهِ ومناهِجِهِ : الاقتصاديَّةِ ، والاجتماعيَّةِ ، والسِّياسيَّةِ ، وطِرازِ حياتِها وسُلُوكِها ، إلاَّ أصابَها الطُّغيانُ الاقْتِصاديُّ ، بِسَرَطانِهِ الخَبيثِ .

ولكنْ عندما كانَ يُمارَسُ الإسلامُ عمليًّا ، كَمَنْهَجِ حياةٍ ، يَعيشُهُ المُسْلِمُ قَلباً وقالَباً ، بِبَدَنِهِ وروحِهِ ، وجميعِ مشاعِرِهِ ، عندئذٍ كانتِ الأُمَّةُ المُؤمِنَةُ ، يُشارُ إليها وإلى نظامِها بالبَنانِ . مِصْداقاً لِقَوْلِ اللهِ تَعالَى :

---

(١) محمد البهي : التفسير الموضوعي للقرآن الكريم «تفسير سورة الأنعام» ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

فالمُؤْمِنونَ ـ كما تُبَيِّنُ الآيَةُ الكَريمَةُ ـ هُم خَيْرُ الأُمَمِ ، طالما يَلْتَزِمُونَ شُروطَ الْخَيْرِيَّةِ ، وهِيَ :

أولاً : الإيمانُ باللهِ تعالَى وحْدَهُ ، أيْ : التَّوحيدُ في الأُلوهيَّةِ ، والرُّبوبيَّةِ ، وأسماءِ اللهِ تعالَى الْحُسْنَى ، والصِّفاتِ والذَّاتِ .

ثانياً : الأَمْرُ بالْمَعْروفِ : هُوَ كُلُّ ما أَقَرَّهُ الشَّرْعُ الإِسْلاميُّ الْحَنيفُ واسْتَحْسَنَهُ ، ثُمَّ أمَرَ الْمُسلمينَ ، أنْ يعملُوا بِهِ في جميعِ أَصنافِ الْبِرِّ وأنواعِ الْخَيْرِ .

ثالِثاً : النَّهيُ عَنِ المُنكَرِ : هُوَ كُلُّ ما نَهَى الشَّرْعُ عَنْهُ واسْتَقْبَحَهُ ، وأَمَرَ بِتَجَنُّبِهِ والابْتِعادِ عَنْهُ . فَوَصْفُ الْمُؤْمِنِينَ في الآيةِ الكريمَةِ ، هُنا : (يَصْدُقُ علَى الَّذِينَ خُوطِبُوا بِهِ أَوَّلاً : وهُمُ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ وأَصْحابُهُ ، الَّذِيْنَ كانُوا معَهُ وقْتَ التَّنْزِيْلِ . . . فَهُم كانُوا يأْمُرُونَ بالْمَعْرُوفِ ، ويَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، ولا يَخافُ ضَعِيفُهُم قَوِيَّهُم ، ولا يَهابُ صَغِيرُهُم كَبِيرَهُم ؛ لأَنَّهُم مَلَكَ الإِيمانُ قُلُوبَهُم ومَشاعِرَهُم ، فكانُوا مُسَخَّرِيْنَ لأَغْراضِهِ في جَمِيعِ أَحْوالِهِم)[1].

فَهَذِهِ الْخَيْرِيَّةُ الإِيمانِيَّةُ : لا تَثْبُتُ لأُمَّةِ الإِسلامِ ، إلاَّ إِذا حافَظَتْ علَى أُصولِها الثَّلاثَةِ ، كما وَرَدَتْ في الآيَةِ الْقُرآنِيَّةِ الكريمَةِ السابقَةِ .

---

(١) أحمد مصطفى المراغي : تفسير المراغي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لا . ط ، لا . ت ، ٤/٢٩ .

آنَ الأوانُ اليومَ أنْ يُدرِكَ المُسلمونَ : أهميَّةَ المَنهَجِ الإسلاميِّ في جميعِ أنواعِ حياتِهم عامَّةً ، وفي الاقتِصادِ خاصَّةً ؛ لأنَّهُ عَصَبُ الحياةِ حَقيقَةً . لا سِيما بعدَ الفَشَلِ الماليِّ الذَّريعِ ، في جميعِ القوانينِ الماديَّةِ : الشُّيوعيَّةِ منها والرَّأسماليَّةِ سواءٍ بسواءٍ ؛ لأنَّها أنظِمَةٌ قائِمَةٌ أصلاً ، علَى مُخالَفَةِ الفطرَةِ الإنسانيَّةِ المُستَقيمَةِ . أمَّا البديلُ الاستراتيجيُّ الواقِعِيُّ فَهُوَ : دِينُ الفِطرَةِ : الإسلامُ ، الَّذي يَجِبُ ألاَّ تُنَحَّى مفاهيمُهُ الاقتِصاديَّةُ ، عَنِ التَّنمِيَةِ والتَّخطيطِ الآنيِّ والمُستَقبَليِّ مَعاً ، خاصَّةً في بيئَتِهِ وبينَ أهلِهِ ، ومكانِ مَهبِطِهِ ؛ لأنَّ فيهِ إنقاذَ البشَريَّةِ وتَخليصَها ، مِنَ القيَمِ الشِّرِّيرَةِ المُحْدِقَةِ بها ، والمُتْرَعَةِ جَشَعاً وأنانِيَةً ، وعِبادَةً للمادَّةِ في سائِرِ ألوانِها وأشكالِها ، ثُمَّ ما خلَّفَتْهُ مِنْ أدواتٍ صاخِبَةٍ ، تُصَمُّ لِهَولِها الأُذُنُ .

وما أنْتَجَتْ مِنْ آلاتِ تَدميرٍ مُفجِعَةٍ ، أهلَكَتِ الحَرْثَ والنَّسْلَ ، بما نَشَرَتْهُ مِنَ الخرابِ والدَّمارِ . فَسيكونُ إذاً تخليصُ الإنسانيَّةِ كُلِّها ، مِنْ مُعَوِّقاتِ المُمارَساتِ الاقتصاديَّةِ الماديَّةِ ـ حَيْثُ اكتَوتِ البَشَرِيَّةُ ، بلَهيبِ نارِها وأسْعارِها ـ باستِعمالِ بَلْسَمِها الشَّافي ، بعونِ اللهِ تعالَى ، ألا وهو الإسلامُ : بِمَنهَجِهِ الاقتصاديِّ المَرِنِ ، الَّذي يقومُ علَى القِيَمِ العُليا ، والمُثُلِ الفُضلَى .

* * *

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ

منهَجُهُ التَّشرِيْعِيُّ في فقْهِ الْعِبادات : الصَّلاةُ ، الصِّيامُ ، الزَّكاةُ ، والْحَجُّ

وَظَّفَ «البهيُّ» الْمَنْهَجَ القُرآنِيَّ التَّدْرِيجِيَّ التَّكامُلِيَّ ، الَّذي نُهِجَ مِنْ قَبْلُ ، في تَطْويرِ تَشْرِيعِ الْمُجْتَمَعِ الإسلامِيِّ ، حَيْثُ اقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ الإلهِيَّةُ ، فِيما يَخُصُّ الْعِباداتِ مَثلاً : أَنْ لا تُفْرَضَ مَرَّةً واحِدَةً ، حَتَّى ولا العِبادَةُ الْواحِدَةُ فُرِضَتْ دَفْعَةً واحِدَةً . إنَّما كانَتْ تَعْتَمِدُ : التَّدَرُّجَ والتَّكامُلَ ، في التَّشْريعاتِ ؛ لاعْتِباراتٍ مَنْهَجِيَّةٍ كَثيرَةٍ ، لا بُدَّ مِنَ الاهتِمامِ بها ، كالإِعْدادِ النَّفسيِّ والاجتماعيِّ ، على سبيلِ المِثالِ .

وَمِنَ الْمَلْحُوظِ أنَّ بِناءَ الْمُجْتَمَعِ الإسلامِيِّ - إِلَى أَنِ اكْتَمَلَ تَشْريْعُهُ - انْتَقَلَ مِنَ وَضْعِ الْمُجْتَمَعِ الْجاهِلِيِّ ، أَيِ الْمُجْتَمَعِ المادِّيِّ الْوَثَنِيِّ ، إِلَى حالَةِ الْمُجْتَمَعِ الرَّبَّانِيِّ ، صاحِبِ الْحَضارَةِ الإنسانِيَّةِ ، الْمُتَمَثِّلَةِ في الإيمانِ بالْقِيَمِ الْعُلْيا ، الَّتي تُسْتَشَفُّ مِنْ ذاتِ الْمَوْلَى جَلَّ جلالُهُ ، ومِنْ صِفاتِهِ ، ومعنَى ذلكَ : (أَنَّ الْمُجْتَمَعَ الإسلامِيَّ ، لَمْ يَتَكَوَّنْ في تَشْرِيعِهِ دَفْعَةً واحِدَةً ، ولا انْتَقَلَ فَجأَةً مِنْ وَضْعِهِ السَّابِقِ ، إِلَى الْوَضْعِ الْمَرْغُوبِ فيهِ ، وَهُوَ الْوَضْعُ الإنسانيُّ أَوِ الإسلامِيُّ .

وإِنَّما الْوَقْتُ الَّذي شَغَلَهُ نُزُولُ الْوَحْيِ بالقُرآنِ الكَرِيمِ ، كانَ هُوَ ذلكَ الْوَقْتُ ، الَّذي تَمَّ فيهِ التَحوُّلُ مِنْ مُجْتَمَعِ المادِّيِّينَ ، إِلَى مُجْتَمَعِ أَصْحابِ الرُّوحِيَّةِ والْقِيَمِ الإنسانيَّةِ .

فَالتَّنْجِيمُ في نُزُولِ الْوَحْيِ ، كَانَ هُوَ المَنْهَجُ القُرآنِيُّ ، في تَطْويرِ بِناءِ الْمُجْتَمَعِ . . . إذْ كُلَّما تَجِدُ مُشْكِلَةٌ فـي التَّطْبيقِ ، بِسَبَبِ الأعْرافِ والعاداتِ ، أَوْ بِسَبَبِ تَسَلُّطِ التَبَعِيَّةِ السابِقَةِ ـ [قبلَ الإسلامِ] ـ علَى التَّفْكِيرِ أوِ السُّلُوكِ . . . كُلَّما يأتِيَ الْحَلُّ في الْكَشْفِ عَنْها وتَوْضِيحِها .

وَتَطَوُّرُ تَشْريعِ الْمُجْتَمَعِ في نُزُولِ الْوَحْيِ بِهِ ، ليسَ هُوَ تَطَوُّرُ مبادئِ الإسْلامِ . [لأَنَّ] مبادِئَ الإِسلامِ ثابِتَةٌ وقائِمَةٌ ، فَهِيَ تُمَثِّلُ عِلْمَ اللهِ تعالَى الكامِلَ ، الَّذي لا يَقْبَلُ الصَّيْرورةَ والتطوُّرَ بِحال . وإِنَّما التطوُّرُ ، أَوِ التدرُّجُ : هُوَ في النُّزولِ بتلكَ الْمبادئِ ، حَسَبَ أَوْضاعِ الْمُجْتَمَعِ)[1].

كما اعْتَمَدَ «البهيُّ» أيضاً الْمَنْهَجَ الْوَصْفِيَّ ، الَّذي يَنْبَغِي أنْ يَتَقَرَّبَ الْعَبْدُ المؤْمِنُ بِهِ ، إلَى رَبِّهِ وخالِقِهِ جَلَّ في عُلاهُ ، وذلِكَ مِنْ خِلال صُنُوفِ العبادَةِ : مِنْ صلاةٍ ، وصيامٍ ، وزكاةٍ ، وَحَجٍّ . فإنَّ مِنْ شأْنِها أَنْ تُقَرِّبَ الْمُؤْمِنَ ، مِنَ اللهِ سُبحانَهُ وتعالَى ؛ لأَنَّها تُكَوِّنُ جَوّاً يَتَذَكَّرُ فيهِ المُؤْمِنُ رَبَّهُ . ثُمَّ يُحاوِلُ الابتعادَ عَنْ شَواغِلِ الدُّنيا ، لِكَيْ يَسْتَحْضِرَ جَلالَ اللهِ تعالَى وَعَظَمَتَهُ .

وَمِنْ هنا ، يَنْبَغِي أَنْ يُقالَ : إذا كانتِ الْعباداتُ فُرَصاً للتَّوجُّهِ إِلَى اللهِ سُبحانَهُ وتعالَى ، والاتِّصال بهِ ، فإنَّها حتماً يَجِبُ أَنْ تَسْتَتْبِعَ التقرُّبَ مِنَ اللهِ جَلَّ شأْنُهُ .

(والتَّقَرُّبُ منهُ سُبحانَهُ وتعالَى ، ليس تَقَرُّباً مكانِيّاً ، وإِنَّما في مُحاوَلَةِ الاتصافِ بِصفاتِهِ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ ، وإنْ لَمْ يَبْلُغْ هذا الاتصافُ ، تِلكَ الدَّرَجَةِ الَّتِي لِصِفاتِ الْمولَى عَزَّ وجلَّ . . . [كما] يَجِبُ أَنْ يَسْعَى الْعابِدُ ، إِلَى تَحْصِيلِ الْقُدْرَةِ والاستِطاعَةِ : قُدْرَةِ الْبَدَنِ ، واستِطاعَةِ الْعَقْلِ والتَّفكيرِ ، وَقُدْرةِ السَّيْطَرَةِ علَى هُوى النَّفْسِ ، واستطاعَةِ التَّدْبيرِ في الْحياةِ ، وأَيْضاً بِقَدْرِ ما يُحَصِّلُ مِنْ ذلكَ ، بِقَدْرِ ما يَتَقَرَّبُ إِلَى اللهِ تعالَى . ويَسْعَى إِلَى تَحْصِيلِ الْعِلْمِ ، وبِقَدْرِ ما يُحَصِّلُ الْعِلْمَ ، ويَكْتَسِبُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ ... بِقَدْرِ ما يكونُ قُرْبُهُ مِنَ اللهِ تعالَى .

---

(١) محمد البهي : منهج القرآن في تطوير المجتمع ، ص ٩ ، ١٠ .

ويَسْعَى إلَى تَحْصِيلِ الْغِنَى ، وهُوَ غِنَى النَّفْسِ ، عَنْ طريقِ القناعَةِ والاكْتفاءِ بِسَدِّ الْحاجَةِ عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ عَلَى تَجاوزِها . . . وبِقَدْرِ ما يَسْتَغْنِي الْمُؤْمِنُ الْعابِدُ عَنْ غَيْرِهِ ، مِنْ أصْحابِ الْمالِ أوِ الْجاهِ ، أوِ السُّلْطَةِ . . . بِقَدْرِ ما يَقْتَرِبُ مِنْ غِنَى اللهِ سُبحانَهُ وتعالَى .

فَيَسْعَى إلى تَحْصِيلِ الْحياةِ للنَّفْسِ ، كَنَفْسٍ إنسانِيَّةٍ ، وهيَ حياةُ الكرامَةِ . [ويكونُ ذلكَ بالْبُعْدِ] عَنِ الْمَذَلَّةِ والمَهانَةِ ، [وأسْبابِهما] . . . فإذا انْعَزَلَتْ عِبادَةُ الإنسانِ للهِ تعالَى ، عَنْ مُحاوَلَةِ الاتصافِ بِصِفاتِهِ ، وعَنْ فاعِلِيَّتِهِ في حياتِهِ الْفِكْرِيَّةِ والسُّلُوكِيَّةِ . . . فإنَّ عِبادَتَهُ يَخِفُّ وَزْنُها أوْ يكادُ ، ويَنْعَدِمُ أثَرُها . ولهذا يقولُ اللهُ تعالَى :

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ (التوبة: ٥٤).

[يَصِفُ اللهُ تعالَى الكافرينَ والْمُنافِقينَ في الآيةِ الكَريمَةِ] : بِأنَّ عِبادَتَهُم وتَقَرُّبَهُم إلَى اللهِ سُبحانَهُ وتعالَى ، غَيْرُ مُجْزٍ ، وَغَيْرُ مُثْمِرٍ . فإقْدامُهُمْ عَلَى الصَّلاةِ وهُم كُسالَى ، وإنْفاقُهُمُ المالَ وهُم كارهونَ للإنفاق ، يَدُلُّ على الانْعِزالِيَّةِ في حياتِهم ، [أثناءَ ادِّعائِهم لعِبادَةِ] اللهِ تعالَى ، [ثُمَّ نَظَراً لَفُقْدانِهِم فاعليَّةَ العبادَةِ في سُلوكِهم ، بِسَبَبِ نِفاقِهم] .

لذا فإنَّهُم كافِرونَ باللهِ جَلَّ جَلالُهُ ، [بعيدون عَنْ هَدْيِ] رسولِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ . [هَكَذا يُحَدِّدُ اللهُ تعالَى في كتابِهِ الكَريمِ ، ما يَجِبُ أنْ يكونَ عليهِ الرَّسولُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، والمؤْمِنونَ أيضاً . وهيَ صورَةٌ تَخْتَلِفُ كُلَّ الاختلافِ ، عَمَّا سَبقها مِنْ أحوالِ الكافِرينَ والمُنافِقينَ ، فيقُولُ جَلَّ وَعَزَّ :

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾

(العنكبوت: ٤٥).

[يُؤكِّدُ اللهُ تعالَى بأنَّ] : شأنَ العِبادَةِ تَتأتَّى بآثارِها ، فالصَّلاةُ وهيَ نوعٌ مِنَ العِبادَةِ ، لا بُدَّ أنْ تُستَتْبَعَ نتائِجُها ، مِنْ تَرْكِ الفحْشاءِ والْمُنْكَرِ ، مِنْ تَرْكِ الْجرائِمِ الاجْتِماعِيَّةِ والأخلاقِيَّةِ ، الَّتِي تُؤْذِي وَتُسَبِّبُ الضَّرَرَ للآخَرِينَ ، وإذا لَمْ تُسْتَتْبَعْ هَذِهِ النَّتائِجُ ، فَيَدُلُّ أمْرُها عندئذٍ علَى انْعِزالِيَّةٍ في أدائِها . وتُصبِحُ رَسْماً وَشَكْلاً وَهَيْئَةً ، دونَ أنْ تَكُونَ لها رُوحٌ وأثَرٌ . . . .

أمَّا الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ : هُوَ القريبُ مِنَ اللهِ تعالَى ، في تَمَثُّلِهِ لِصفاتِ رَبِّهِ البارئِ عَزَّ وَجَلَّ ، بينما المُؤْمِنُ الضَّعيفُ : هُوَ الَّذِي تَبْعُدُ الشُّقَّةُ ، بينَهُ وبينَ اللهِ سُبحانَهُ وتعالَى ، فيما لهُ مِنْ صِفاتٍ).

والانْعِزالِيَّةُ في أداءِ العباداتِ ، بمعنَى : عَدَمُ التَّأثُّرِ في السُّلوكِ ، نَحْوَ الإيجابيَّةِ ، هِيَ إذاً أمارَةُ ضَعْفٍ في اليَقِيْنِ .

أمَّا المؤْمِنونَ العابِدُونَ : يومَ يكونونَ أقوياءَ في الْبَدَنِ والْعَقْلِ ، حريصينَ علَى اكْتِسابِ الْعِلْمِ والْمَعْرِفَةِ ، مُتْقِنِينَ لِعَمَلِهِم ، مُتَّبِعِينَ سَبِيْلَ الْهِدايَةِ في سُلُوكِهِم ، أصْفياءَ النُّفوسِ لِبَعْضِهِمُ البعضِ ، مُتآخِيْنَ علَى أعْلَى دَرَجاتِ الْحُبِّ في اللهِ تعالَى ، يكونونَ عِنْدَها حَقًّا في عِبادَتِهِم للهِ سُبحانَهُ وتعالَى ، علَى درَجَةٍ كَبيرَةٍ مِنَ الْقُرْبِ والْقَبُولِ ، بِمَشيْئَةِ اللهِ تعالَى .

بِهَذِهِ المواصَفاتِ الْمَنْهَجِيَّةِ الْمُتأنِّيَةِ ، النَّاتِجَةِ عَنْ صَدَى العِباداتِ ، سوفَ يَتَجَدَّدُ الْمُجْتَمَعُ الإسلامِيُّ ، في تَوْجِيهِهِ ، وَسُلُوكِهِ ، وليسَ جَديداً بأفْرادِهِ وَحَسْبُ ؛ لأنَّ العِباداتِ الَّتِي أتَى بها الإسلامُ : (هِيَ الْمُعَبِّئَةُ للنَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ ، نَحْوَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ ، الْمُعْتَدِلِ الْمُتَوازِنِ . [فَبما تَشْتَمِلُ عليهِ] الصَّلاةُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالَى ، وَوُقُوفٍ بَيْنَ يَدَيْهِ ، خَمْسَ مَرَّاتٍ في اليومِ واللَّيلةِ ، [لا رَيْبَ إنَّ ذلكَ ، سَيَدْفَعُ النَّفْسَ باستِمرارٍ دائِمٍ] نَحْوَ الْعَمَلِ [الصَّالِحِ الْمُتَمَثِّلِ ، بالابتعادِ عَنِ الفُحْشِ قَولاً والْمُنْكَرِ قَصْداً وعَمَلاً ، كنتيجَةٍ مِن نتائِجِ الصَّلاةِ ، فيكونُ هذا موافقاً لِقَولِهِ تعالَى] :

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ (العنكبوت: ٤٥) . وَلَيْسَتِ الصَّلاةُ : هِيَ ما لها مِنْ رُكُوعٍ وسُجُودٍ ، يؤدَّى فقط ، بلْ بِما فيها مِنْ تَمَثُّلٍ ، لِكمالِ اللهِ تعالَى وَجَلالِهِ .

وما في [عبادَةِ] الصَّومِ [أيضاً] : مِنْ إمساكٍ عمَّا تَشْتَهِي النَّفْسُ ، وعَمَّا يَشْتَهِيهِ الْبَطْنُ ، والْفَمُ ، والْفَرْجُ ، وما تَشْتَهِيهِ الْقَدَمُ مِنَ الْخُطَى إِلَى الفسادِ . . . [فإنَّهُ] يَحْمِلُ علَى تَخفيفِ حِدَّةِ الأَنانيَةِ ، وإذا خَفَّتْ أَنانيَةُ النَّفْسِ ، اقْتَرَبَتْ في المُشارَكَةِ مَعَ غَيْرِها ، وتَوازَنَتْ واعْتَدَلَتْ مَعَها ، في السُّلُوكِ والتَّعامُلِ .

وما في عِبادَةِ الزَّكاةِ : مِنْ إعْطاءٍ للمالِ ، فإنَّهُ يُدَرِّبُ النَّفْسَ تدريباً عملياً علَى المُشارَكَةِ الماليَّةِ ، بِجانِبِ المُشارَكَةِ الْوجْدانِيَّةِ ، وَذلكَ بِدَورِهِ ، يَدْعُو إِلَى التَّوازُنِ والاعْتِدالِ ، والشُّعُورِ الإِنسانِيِّ بينَ الأغنياءِ والفُقراءِ .

وما في فَريضَةِ الْحَجِّ ، مِنْ مُباشَرَةٍ للعِبادَةِ ، الَّتِي يَنْشُدُ فيها العابِدُ ، التَّقَرُّبَ إِلَى اللهِ تعالَى ، كما أَنَّها مَدْعاةٌ للإِنْفاقِ الْخَيِّرِ ، كما أَنَّها لا تَحُولُ أَيضاً هذهِ العِبادَةُ أَثْناءَ أَدائِها ، دونَ الْكَسْبِ بالتِّجارَةِ ، أَوْ بأَيِّ عَمَلٍ مَشْرُوعٍ آخَرَ)[1].

بِجانِبِ ذلكَ فإنَّ العِباداتِ في الإِسلامِ ، تُعِدُّ الإِنسانَ إِلَى الْمَظْهَرِ الأَوَّلِ مِنْ مظاهِرِ الرُّشْدِ ، وهُوَ مَظْهَرُ الْفَصْلِ بينَ وجُودِ الذَّاتِ ، ووجُودِ الآخَرينَ ، والاعترافِ بوجودِ الآخَرِ ، كالاعْترافِ بوجودِ الذَّاتِ بالتَّمامِ والكَمالِ .

فالعِباداتُ تؤَكِّدُ علَى تَحَمُّلِ الإِنسانِ للصَّبْرِ ، والمَسْئُولِيَّةِ ، ومُواجَهَةِ الأَزَماتِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وكُلُّها مِنْ مظاهِرِ الرُّشْدِ والنُّضْجِ الإِنسانِيِّ .

فالمؤْمِنُ الَّذِي يُؤَدِّي : الصَّلاةَ ، والصَّومَ ، والزَّكاةَ ، والْحَجَّ ، يَشْعُرُ شُعُوراً واضِحاً بِمَسْئُولِيَّتِهِ ، أَمامَ اللهِ سُبحانَهُ وتعالَى .

---

(١) محمد البهي : أثر الروحية في توجيه الشباب ، ص ٤٣٤ ، ٤٣٥ .

كَذلكَ فَإنَّ العباداتِ في مَجموعِ أدائِها : تُفيدُ في مُواجَهَةِ الضِّيْقِ النَّفْسِيِّ ، وَتَغَيُّرِ الْحالِ بالْمُفاجآتِ ، الَّتِي يُعانِي مِنْها الكَثيرُ مِنْ مُجْتَمعاتِنا الْمُعاصِرَةِ اليومَ .

فَحياةُ المؤْمِنِ الْعابِدِ للهِ تعالَى ، بما فيها مِنْ مَسَرَّةٍ وَمَضَرَّةٍ ، كُلُّها خَيْرٌ وأَجْرٌ لَهُ عِندَ اللهِ تعالَى ؛ لأنَّ المؤْمِنَ الكاملَ : يشكُرُ اللهَ تعالَى في السَّرَّاءِ ، ويَصْبِرُ علَى الضَّراءِ ، فَينالُ خَيْرَ الدَّارَيْنِ .

أَمَّا ناقِصُ الإيمانِ : فإنَّهُ يَتَضَجَّرُ ويَسْخَطُ مِنَ الْمُصيبَةِ ، فَيَجْتَمِعُ عليهِ أَثَرُ الْمُصيبَةِ ، وَوِزْرُ سَخَطِهِ ، كما أَنَّهُ لا يَعْرِفُ للنِّعْمَةِ قَدْرَها ، فلا يقومُ بِحَقِّ الْمُنْعِمِ في الشُّكْرِ عليها ، فَتَنْقَلِبُ النِّعْمَةُ في حَقِّهِ نِقْمَةً . والدَّليلُ في ذلكَ : الْحَدِيْثُ النَّبَوِيُّ الشَّريفُ التَّالي :

عَنْ أَبِي يَحْيَى صُهَيْبِ بنِ سِنانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ ـ وَلَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إلاَّ لِلْمُؤْمِنِ ـ إنْ أَصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ ، فَكانَ خَيْراً لَهُ ، وَإنْ أَصابَتْهُ ضَرَّاءُ ، صَبَرَ فَكانَ خَيْراً لَهُ »[1].

فالعِباداتُ مَنْهَجُ حياةٍ بالنِّسْبَةِ للمؤْمِنِ ، إذْ تَجْعَلُهُ عالِماً باللهِ سُبحانَهُ وتعالَى ، راضياً بأَحْكامِهِ ، عاملاً علَى تَصْدِيقِ مَوْعُودِهِ ، فيما يَسُرُّهُ مِنْ نِعَمٍ وعافيَةٍ ، أَوْ ما يَضُرُّهُ مِنْ أَذًى في بَدَنِهِ ، أَوْ في مالِهِ وولَدِهِ وأَهْلِهِ . فيَفوزُ بنتائِجِ الشُّكْرِ والصَّبْرِ ، وليسَ ذلكَ الْجزاءُ الطَّيِّبُ إلاَّ للمؤْمِنِ .

هذا وقدَ اتَّخَذَ « البهيُّ » مَنْهَجَهُ التَّطَوُّرِيَّ التَّدريجيَّ في التَّفسيرِ الموضُوعِيِّ ، في تَشْريعِ عِبادَتَيِ الصَّلاةِ والزَّكاةِ ، فكانَ خَيْرَ تَوضيحٍ لهدَفِ القُرآنِ الكريمِ ، في أُسلوبِ تَدَرُّجِ تَشْريعِهِ ، لبناءِ جوانبِ الْمُجْتَمَعِ الإسلامِيِّ ، فَعِبادَةُ الصَّلاةِ

---

(١) محيى الدين يحيى النووي : نزهة المتقين شرح رياض الصالحين ، رقم الحديث « ٢٧/٣ » ، ٥٩/١ . ورواه مسلم ، رقم الحديث « ٢٠٩٢ » ، ص٦٢٨.

مَثَلاً : (جاءَ [في القُرآنِ المجيدِ] ما يُشيرُ إلَى أنَّ عبادَةَ الصَّلاةِ ، فُرِضَتْ أوَّلاً قَبْلَ الزَّكاةِ ، رَغْمَ أنَّ اقْتِرانَ الصَّلاةِ بالزَّكاةِ ، في كَثِيرٍ مِنَ الآياتِ ، رُبَّما يُوحِي بأنَّ أداءَهُما فُرِضَ في وَقْتٍ واحِدٍ . يقولُ اللهُ تعالَى في آيةٍ مَدَنِيَّةٍ ، [منْ سورَةٍ مَكِّيَّةٍ] : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ (هود: ١١٤).

[يُوجِّهُ اللهُ تعالَى الأمْرَ إلَى رسولِ اللهِ ﷺ وَحْدَهُ] ، دونَ مَنْ عَداهُ ، مِنَ الأهْلِ وبَقِيَّةِ الْمُؤْمِنِينَ ، بالصَّلاةِ في الأوْقاتِ ، الَّتِي تَقَعُ في طَرَفِي النَّهارِ ، وأجْزاءَ مِنَ اللَّيْلِ . ثُمَّ بعدَ أنْ أمَرَهُ بها وَحْدَهُ : تأْتي آيَةٌ مَدَنِيَّةٌ أُخْرَى ، في سُورَةٍ مَكِّيَّةٍ ، تَطْلُبُ إليهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : أنْ يأْمُرَ بها أهْلَهُ ، بالإضافَةِ إليهِ ، دُونَ ما عَداهُم مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بهِ ، يقُولُ اللهُ تعالَى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (طه ١٣٢) .

[هكَذا يُوجِّهُ القُرآنُ الكريمُ ، الرَّسُولَ مُحَمَّداً عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، في فَرَضِيَّةِ الصَّلاةِ ، مؤكِّداً مَنْهَجَ التَّطَوُّرِ والتَّدَرُّجِ] ، فَيُبَلِّغُهُ أمْرَيْنِ هُنا بِشَأْنِ الصَّلاةِ :

أوَّلاً : بأنْ يأْمُرَ أهْلَهُ بالصَّلاةِ ، ومعنَى ذلكَ أنْ يكونَ الأمْرُ بها في نِطاقٍ ضَيِّقٍ ، وهُوَ نِطاقُ الأهْلِ ، خِشْيَةَ أنْ يُعْرَفَ أمْرُ الرَّسُولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عِنْدَ أعدائِهِ . فَلَوْ كانَ الأمْرُ بها [أي الصَّلاةِ] عامًّا وَشائِعاً ؛ لأبرزَتْهُ الآياتُ الكريمَةُ ، فهذا يُوحِي إذنْ : بأنَّ الوقْتَ لَمْ يَحِنْ بَعْدُ لِجَعْلِها فَريضَةً عامَّةً . وهَذا الْوَضْعُ في التَّعبيرِ القُرآنيِّ يُؤْذِنُ [بأنَّ التَّكْليفَ العامَّ بالصَّلاةِ ، كانَ مُتَدَرِّجاً ، إذْ لا يزالُ وقْتُهُ مُبَكِّراً] . كما يُؤْذِنُ بأنَّ عددَ المُؤْمِنينَ برسالَةِ الإسلامِ ، [في ذلكَ الوقْتِ ، وبالتَّحديدِ في بدايةِ الدَّعْوَةِ الإسلاميَّةِ]، كانَ قِلَّةً [في إمكاناتِهِ]، [ثُمَّ كانُوا] مُسْتَضْعَفِينَ [عَمَليًّا أيضاً] .

ثانياً : بأنْ يَصْطَبِرَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ علَى الصَّلاةِ ، بِبَذْلِ الْجَهْدِ في الصَّبْرِ علَى أدائِها ، مِمَّا يُفيدُ : أنَّهُ كُلِّفَ بها قَبْلَ أنْ يُوحَى إليهِ بِتبليغِ شأْنِها إلَى أهْلِهِ .

فالصَّلاةُ فُرِضَتْ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِسَنَةٍ عَلَى الأَقَلِّ . ثُمَّ تَسْتَمِرُّ الآيَةُ ، فتَقُولُ : ﴿ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ﴾ أيْ لا يُطْلَبُ مِنْكَ إنْفاقاً عامّاً ، أوْ زكاةً ... أوْ صَدَقَةً . ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ . أيْ : إنَّما اللهُ جَلَّ جلالُهُ : هُوَ الَّذِي تَكَفَّلَ بِرِزْقِ نبيِّهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، في الْوَقْتِ الَّذِي يُوَجِّهُ فيهِ جُهودَهُ إلَى الدَّعْوَةِ ، وفي الْوَقْتِ الَّذِي يكونُ فيهِ النَّبِيُّ بِحاجَةٍ إلَى عَوْنٍ ، لِضَعْفِ قُوَّتِهِ ، وَقِلَّةِ عَدَدِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ . ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ . أيْ : المَصِيرُ الأَسْلَمُ ، والْجَزاءُ الأَوْفَى : هُوَ لِمَنِ اتَّقَى ، وَتَجَنَّبَ الْمُنكَراتِ والْفَواحِشَ . وأَمْثَلُ طَرِيقٍ إلَى ذلكَ هُوَ الصَّلاةُ . إذْ إنَّها تَنْهَى عَنِ الْفَحْشاءِ والْمُنْكَرِ)[1].

يسْتَنْبِطُ الباحِثُ مِنْ خِلالِ الآيَةِ القُرآنِيَّةِ الْكَرِيمَةِ السَّابِقَةِ : أَنَّ الزَّكاةَ فُرِضَتْ في وجُوبِ أَدائِها مُتَأَخِّرَةً عَنِ الصَّلاةِ . بالنَّظَرِ إلى التَّدَرُّجِ في تَكْوِينِ الْمُجْتَمَعِ الإسلامِيِّ ، وَفِي تَحْوِيلِهِ مِنْ مُجْتَمَعٍ جاهِلِيٍّ ، إلَى مُجْتَمَعٍ إنْسانِيٍّ حَضارِيٍّ ، عَنْ طَرِيقِ القُرآنِ وَرِسالَتِهِ ومَنْهَجِهِ ، في عبادَةِ الزَّكاةِ ، وتَحْدِيدِ أَوْجُهِ صَرْفِها . فإنَّ مَنْهَجَ القُرآنِ العَظِيمِ ، لَمْ يَقِفْ عِنْدَ أَصْحابِ الْحاجَةِ ـ وَهُم أَنْواعُ الْمَصارِفِ في الزَّكاةِ أو في وجُوهِ صَرْفِها ـ في إخْراجِ الزَّكاةِ لِمُسْتَحِقِّيْها ، كَعِبادَةٍ وَفَرِيضَةٍ ، فَحَسْبُ .

إنَّما اسْتَهْدَفَ تكْوِينَ رُوحٍ عامَّةٍ لَدَى أَفْرادِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ لكَي تَدْفَعَهُم في رَغْبَةٍ ، مَشْحُونَةٍ بِرِضاءٍ نَفْسِيٍّ ، إلَى القِيامِ مُباشَرَةً ، وتنفيذاً عَمَلِيًّا ، في مُمارَسَةِ هَذِهِ الْعِبادَةِ ، ومُساعَدَةِ أَهْلِ الْحاجَةِ ، كما أَمَرَ اللهُ تعالَى . وبذلكَ يَتَّضِحُ الفَرْقُ الشَّاسِعُ بينَ فَرِيضَةِ الزَّكاةِ ، بمفهومِها الإيمانيِّ التَّعَبُّدِيِّ ، وأَثَرِها النَّفسيِّ السُّلوكِيِّ الحضارِيِّ . وبينَ ما يُسمَّى بالمَكُوسِ أوِ الضَّرِيبَةِ الْجَبْرِيَّةِ ، التي

---

(١) محمد البهي : منهج القرآن في تطوير المجتمع ، ص ١٠ ، ١١ .

يجمعُها دُعاةُ المدنيَّةِ اليومَ ، مِنْ شُعوبِهم ، وما تُخَلِّفُهُ مِنْ آثارٍ نَفسيَّةٍ سلبيَّةٍ ، وسُلُوكٍ اجتماعيٍّ مُفْعَمٍ بِرُوحِ الانتقامِ .

لذلكَ قَبلَ تَعْيينِ فَرْضِيَّةِ الزَّكاةِ ، كانَ الْمَنْهَجُ القُرآنِيُّ مُتَدَرِّجاً مُتأنِّيًا ، حيْثُ طَلَبَتِ الآياتُ الْمَدَنيَّةُ الإنْفاقَ في سبيلِ الْخَيْرِ الْعامِّ . (وَعِنْدَما طُلِبَ الإنْفاقُ ، [مِنَ المؤمنينَ الأغنياءِ] طُلِبَ بِصُورَةٍ غَيْرِ مُباشَرَةٍ . . . [أيْ في صُورَةٍ إيْمانيَّةٍ حضاريَّةٍ ، مُوحِيَةٍ ، بِأنَّ] : الَّذِي لا يُنْفِقُ [مِنْ مالِهِ الَّذي مَلَّكَهُ اللهُ تعالى إيَّاهُ] علَى صاحِبِ الْحاجَةِ مِنْ أُمَّتِهِ ، هُوَ مِنَ الْماديِّينَ الوَثَنِيِّينَ ، غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ .

إذِ الْماديُّ : هُوَ الأنانِيُّ الَّذِي لا يَتَأثَّرُ بالرَّابِطَةِ الاجْتماعِيَّةِ الإنْسانِيَّةِ ، في نَظْرَتِهِ إلَى غَيْرِهِ . . . أوْ في مُعامَلَتِهِ لهُ .

طَبْعاً علَى الْعَكْسِ مِنَ الْماديِّ الْوَثَنِيِّ : يكونُ الْمُؤْمِنُ باللهِ سُبحانَهُ وتعالَى ، الَّذِي يَرْتَفِعُ في علاقاتِهِ بالآخَرِينَ ، عَنِ الأسبابِ والدَّواعِيَ الْماديَّةِ . [وَمِنَ الأمْثِلَةِ في ذلكَ] قَوْلُهُ تعالَى :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ (الماعون: ١-٣) .

[فالَّذِي يُكَذِّبُ بالدِّينِ ، هُو مَنْ] : يُنْكِرُ الْجَزاءَ الأُخرَوِيَّ . [بِمَعْنَى أنَّهُ] يُنْكِرُ الْبَعْثَ والْجَزاءَ بَعْدَهُ ، [فَهُوَ إذاً] الْماديُّ الْوَثَنِيُّ .

إنَّ التَّكْذِيبَ بالدِّينِ : تَعْبيرٌ عَنْ إنْكارِ الآخِرَةِ . ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ . أيْ يَدْفَعُهُ . . . وَيَحْرِمُهُ مِنْ حَقِّهِ في تَسَلُّمِ مالِهِ ، وفي إنْمائِهِ إنْماءً حَسَناً ، وَهُوَ في وِلايَتِهِ ، [أي في ولايةِ مَنْ يَدْفَعُهُ أوْ يَدَعُهُ ، والَّذي يُفْتَرَضُ بِهِ كَوَلِيٍّ ، أنْ يُحافِظَ على اليتيمِ ، وعلَى مالِهِ أيضاً ، أوْ يَتَطاولُ] فَيَدْفَعُ ابْناً مِنْ أبْناءِ الشُّهداءِ - [مِمَّنْ قَضَى آباؤُهُم نَحْبَهُم] في سَبيلِ الدَّعْوَةِ الإسلامِيَّةِ - ولا يَعْطِفُ عليهِ .

﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ . أَيْ وَهُوَ كَذلكَ ـ [المقصودُ هُنا : هُوَ الَّذِي يُكَذِّبُ بيوم الجزاءِ والحِسابِ] ـ يَتَراخَى وَيُهْمِلُ ، في تَلْبِيَةِ حاجَةِ صاحِبِ الْحاجَةِ ، [كالحَثِّ والْحَضِّ ، علَى إِطْعامِ المِسكينِ مثلاً] .

[أَمَّا] التَّنْدِيدُ [كما وردَ في الآياتِ الكريمَةِ] بالمادِّيِّ : فَهُوَ إِيحاءٌ غَيْرُ مُبَاشَرٍ ، بِطَلَبِ الإِنْفاقِ مِنَ الْمُؤْمِنِ ، في سَبيلِ الْمَصْلَحَةِ الْعامَّةِ .

[ثُمَّ طُلِبَ فيما بَعْدُ مِنَ الرَّسولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ] أَنْ يكونَ الإِنْفاقُ مِنْ غَيْرِ تَحْدِيدٍ لِحَدٍّ أَدْنَى ، حيثُ تَمَثَّلَ في الزَّكاةِ فيما بعدُ ، أَوْ لِحَدٍّ هُوَ أَعْلَى ، يَتَمَثَّلُ في إِخْراجِ الْعَفْوِ ، أَي الزِّيادَةِ عَنِ الْحاجَةِ الطَّبيعيَّةِ . فيقُولُ اللهُ تعالَى :

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾

(الإسراء: ٢٦).

[تُخاطِبُ الآيَةُ الْمُباركَةُ الرَّسولَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فَتأْمُرُهُ] وَحْدَهُ بالإِنْفاقِ ، علَى نَحْوِ أَمْرِهِ وحْدِهِ بالصَّلاةِ ، قَبْلَ [أَنْ يُؤْمَرَ] بِتَبْلِيغِ وجُوبِ أَدائِها إِلَى أَهْلِهِ ، كما تَحَدَّدَ مَصْرِفُ الإِنْفاقِ في ثلاثَةِ أَنْواعٍ ، مِنْ أَصْحابِ الْحاجَةِ : بِذي القُرْبَى ، والمِسْكِينِ ، وابنِ السَّبيلِ ، لِما لَهُم مِنْ أُولَوِيَّةٍ في جماعَةِ المُؤْمِنِينَ : في أَنْ تُسَدَّ حاجاتُهُم .

نَعَمْ الأَمْرُ الْمُوَجَّهُ إِلَى الرَّسُولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، هُوَ أَمْرٌ مُوَجَّهٌ أَيْضاً ضِمْناً إِلَى الْمُؤْمِنِينَ . ولكِنَّ النَّظْمَ الْقُرآنِيَّ : يُشْعِرُ بأَوْلَوِيَّةِ الرَّسُولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وبأَسْبَقِيَّتِهِ في وجُوبِ أَداءِ الْواجِبِ ؛ لأَنَّهُ الْقُدْوَةُ وَالْمَثَلُ الأَكْمَلُ ، في أُمَّتِهِ وَجَماعَتِهِ : في تَطْبيقِ الْفُروضِ والواجباتِ .

ثُمَّ تأْتي آيَةٌ مدنيَّةٌ أُخرى ، تَجْعَلُ الإِنفاقَ في سبيلِ المصلَحَةِ العامَّةِ ، أَوِ الْخَيْرِ العامِّ : حقّاً لأَصحابِ الْحاجَةِ في الجماعَةِ أَوالأُمَّةِ الإِسلاميَّةِ : كما تَجْعَلُهُ حقّاً يَقْتَرِنُ أَداؤُهُ بِحصادِ الثِّمارِ والزَّرْعِ ، لا يتأَخَّرُ عنهُ ، مِمّا كانَ يُمَثِّلُ

الاقتصادَ الإسلاميَّ ، إذْ ذاكَ . . . وتُوجُّهُ معَ ذلكَ : الْخِطابَ بالتَّكْليفِ إلى الْمُؤْمِنِينَ جميعاً ، وليسَ للرَّسولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وحْدَهُ ، فيقولُ اللهُ سبحانَهُ وتعالَى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾
(الأنعام: ١٤١).

[طُلِبَ مِنْ خِلالِ الآيَةِ الكريمَةِ] مُشارَكَةُ أصحابِ الْحاجَةِ لِلْمالِكِينَ ، في ثَمَراتِ ما يَمْلِكُونَ ، وقْتَ الحصادِ أوجَنْيِ الثَّمَر ، مِنْ غَيْرِ تَحْدِيدٍ لِحَدٍّ أدْنَى ، أوْ لِحَدٍّ أعْلَى للإنْفاقِ . ثُمَّ لَمْ تَكْتَفِ الآياتُ بذلكَ ، ولَكِنَّها جَعَلَتِ الْمُشارَكَةَ حَقًّا لأصْحابِ الْحاجَةِ . . . وَواجِباً علَى مَنْ يَمْلِكُونَ ، فيما يَمْلِكُونَهُ) [1].

مِمَّا تَقَدَّمَ مِنَ الآياتِ القُرآنِيَّةِ الكَريمَةِ ، بيَّنَ «البهيُّ» مَنْهَجَهُ الاسْتِنْباطِيَّ الْوَصْفِيَّ ، في مَراحِلِ تَكْوِينِ الْمُجْتَمَعِ الإسلامِيِّ ، بَعْدَما أصْبَحَ الأمْرُ بالصَّلاةِ ، والأمْرُ بالإنْفاقِ أيْضاً ، حَقِيقَتَيْنِ عَمَلِيَّتَيْنِ في حَياةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وأصْبَحَ بالتَّالي شأنُ الصَّلاةِ ، وَشأنُ الإنْفاقِ مَعاً ، مِنَ الصِّفاتِ اللَّازِمَةِ للمُؤْمِنِينَ ، أوِ الْمُكَوِّنَةِ لِمَفْهُومِ اتِّصافِهِم بالإيمانِ .

فإيتاءُ الزَّكاةِ : اقْتَرَنَ بإقامَةِ الصَّلاةِ ، في كَوْنِهما أمارَةً علَى الصِّدْقِ في الإيمانِ ، وَصِفَةَ الْمُتَّقِينَ ؛ لأنَّهُم يكونونَ بِذلِكَ قَدْ تَجَنَّبُوا ، مَنْهَجَ السُّلُوكِ الجاهليِّ ، الَّذِي يَتَّصِفُ بالْمادِّيَّةِ الْوَثَنِيَّةِ .

ثُمَّ يَنْتَقِلُ الْمَنْهَجُ الْقُرآنِيُّ بعدَ ذلِكَ ، خُطْوَةً أُخْرَى ، فَيُؤَكِّدُ في جَعْلِ الصَّلاةِ والزَّكاةِ ، جُزْءاً هامًّا في واقِعِ حياةِ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ ، ولا يَجُوزُ أنْ يَنْفَصِلا عَنْ سُلُوكِ الْمؤْمِنِ ، وَبِذلِكَ يقولُ اللهُ سُبحانَهُ وتعالَى :

---

(١) محمد البهي : منهج القرآن في تطوير المجتمع ، ص ١٣ ، ١٤ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة:٢٧٧).

تُبَشِّرُ الآيةُ الكريمةُ ، الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُباشِرُونَ الْعِباداتِ عامَّةً ، والصَّلاةَ والزَّكاةَ خاصَّةً - حَيْثُ تُصْبِحُ هَذِهِ الأَشياءُ ، مِنَ الْواجِباتِ في سُلُوكِهِم ، ومُعامَلاتِهِم ، وجَمِيعِ تَصَرُّفاتِهِم - بالثَّوابِ والأَجْرِ الْكَبِيرَيْنِ عِندَ اللهِ تعالَى يومَ القيامَةِ . فَيَعيشُونَ حياتَهُم آمِنِينَ مِنَ الْحِسابِ والْحُزْنِ الأُخْرَوِيِّ ، وهَذا بِدَوْرِهِ سَيُدْخِلُ على نُفُوسِهِمُ السُّرورَ والارْتياحَ ، في داريِّ الدُّنيا والآخِرَةِ .

ثُمَّ يقُولُ اللهُ سُبحانَهُ وتعالَى أيضاً : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة:٢١٩) .

هَكَذا يُؤَكِّدُ القُرآنُ الْعَزِيزُ ، على مَنْهَجِ إِنْفاقِ الْعَفْوِ مِنَ الْمالِ : أَيْ الزَّائِدِ عَنِ الْحاجَةِ ، بَعْدَ الإِنْفاقِ الْخاصِّ . فأَصْبَحَ الإِنْفاقُ في سبيلِ اللهِ تعالَى ، وفي الصَّالِحِ العامِّ للمُجْتَمَعِ الإِيمانِيِّ ، لَهُ مَنْهَجانِ أَوْ حَدَّانِ ، هُما :

الزَّكاةُ : وهِيَ فَرْضٌ وعِبادَةٌ . **والْعَفْوُ** : وهُوَ الْحَدُّ الأَقْصَى في مَنْهَجِ الْمُؤْمِنِ للإِنْفاقِ ، لأَنَّهُ زِيادَةٌ على الزَّكاةِ ، في التَّقَرُّبِ بِهِ إِلَى اللهِ سُبْحانَهُ وتعالَى .

والإِسلامُ في تَشْرِيعِهِ : (يَفْرِضُ الواجِبَ لِحَدٍّ مُحْتَمَلٍ عادَةً ... ويَتْرُكُ ما بعدَ الْواجِبِ للمَشِيئَةِ الْفَرْدِيَّةِ ؛ لأَنَّهُ يُريدُ للمُؤْمِنِ : أَنْ يَبْقَى ذلكَ الإِنسانُ صاحِبُ الإِرادَةِ الْحُرَّةِ ، الَّذِي يَفْعَلُ مُلْتَزِماً ، ولَيْسَ مُلْزَماً ، والأَمْرُ في الْعِباداتِ كُلِّها ، على هَذا النَّحْوِ : أَمْرٌ واجِبٌ . . . وآخَرُ سُنَّةٌ ، أَيْ مَتْروكٌ للمَشِيئَةِ الْفَرْدِيَّةِ . فالصَّلاةُ : فيها الْواجِبُ ، والسُّنَّةُ . . . والصَّدَقَةُ : فيها **الواجِبُ** : وهُوَ الزَّكاةُ ، والسُّنَّةُ وهيَ ما بعدَ الزَّكاةِ . . . والصَّوْمُ : فيهِ الْواجِبُ : وهُوَ صَوْمُ رَمَضانَ ، وفيهِ السُّنَّةُ : وهُوَ صَوْمُ ما وراءَ رَمَضانَ ، كَصِيامِ سِتٍّ مِنْ شوَّال . وزِيارَةُ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ : فيهِ الْواجِبُ وهُوَ : الْحَجُّ ، أَوِ الْوُقُوفُ بِعَرَفَةَ ، وفيهِ السُّنَّةُ ، وهيَ ما وراءَ الْحَجِّ ، مِنْ عُمْرَةٍ عندَ بعْضِ الْفُقَهاءِ .

فَالتَّفسيرُ الْموضُوعِيُّ ـ علَى نَحْوِ ما سَبَقَ بيانُهُ ، في تَشْرِيْعِ عِبادَتَي الصَّلاةِ والزَّكاةِ ـ هُوَ خَيْرُ تَوْضِيْحٍ لِهَدَفِ القُرآنِ الكريمِ ، في تَدَرُّجِ تَشْرِيعِهِ ، أثناءَ بِناءِ جوانِبِ الْمُجْتَمَعِ الإنْسانِيِّ .

التَّشْرِيْعُ الْقُرآنِيُّ في تَدَرُّجِهِ ، إذاً : يُمَهِّدُ في بِناءِ الْمُجْتَمَعِ الإسلامِيِّ لِمَرْحَلَةٍ أساسيَّةٍ ستنشأُ وتَقُومُ . فإذا قامَتْ وتَحَقَّقَتْ كانَ قيامُها وتَحَقُّقُها ، تمهيداً آخَرَ لِمَرْحَلَةٍ أُخْرَى ، يَجِبُ أنْ تَتِمَّ بعدَها وهكَذا . . . إلَى أنْ يَكْتَمِلَ البِناءُ التَّشْرِيْعِيُّ .

حيثُ يكونُ عندَها مُساوقاً في بِنائِهِ ، لِما عليهِ التَّحَوُّلُ الْفِعْلِيُّ ، مِنْ مُجْتَمَعٍ جاهِلِيٍّ . . . إلَى مُجْتَمَعٍ إنْسانِيٍّ مُتَحَضِّرٍ . . . أيْ مِنْ مُجْتَمَعٍ مادِّيٍّ أنانِيٍّ ، عابِثٍ فاسِدٍ . . . إلَى مُجْتَمَعٍ إنْسانِيٍّ كَرِيْمٍ ، مُتَماسِكٍ في علاقاتِ أفْرادِهِ ، بَعْضِهِم بِبَعْضٍ . مُسْتَهْدِفاً في سَعْيِهِ ونَشاطِهِ : تَحْقِيقَ قِيَمٍ إنْسانِيَّةٍ عُليا في حياتِهِ)[1].

مِنَ الْمَلْحُوظِ خِلالَ تتابُعِ الآياتِ القُرآنِيَّةِ الكريمَةِ ، ونُزولِها مُنَجَّمَةً أيْ مُتَفَرِّقَةً ، حَسَبَ الوقائعِ والأحداثِ . ثُمَّ مُتَدَرِّجَةً بِقَصْدِ تأصِيلٍ وتَثْبِيتٍ ، الإصلاحِ النَّفسيِّ والاجتماعيِّ ، لَدَى الأُمَّةِ المُسلمَةِ الجديدَةِ .

حيثُ يَشْعُرُ الْمَرْءُ العادِيُّ أنَّ فَتْرَةَ التَّشْرِيْعِ ، في مَنْهَجِ طَلَبِ الإنْفاقِ ، ثُمَّ الصَّدَقَةِ الْمَفْرُوضَةِ ، أوِ الزَّكاةِ في نِهايَةِ الْمَطافِ ، كانَتْ طَوِيلَةً عَنْ فَتْرَةِ تَشْرِيعِ لِعِبادَةٍ أُخْرَى ؛ ذلِكَ لأنَّهُ لَيسَ مِنَ الْيَسِيرِ : أنْ يَتَحَوَّلَ الْمُجْتَمَعُ الْجاهِلِيُّ المادِّيُّ الأنانِيُّ : مِنْ مُجْتَمَعٍ انْغَمَسَ أفْرادُهُ ، في الْمُتَعِ المادِّيَّةِ الرَّخِيْصَةِ ، وكَثِيراً ما يكونُ هذا علَى حِسابِ شَقاءِ الآخَرِينَ ، مِنَ الفُقَراءِ والضُّعَفاءِ فيهِ . إلَى مُجْتَمَعٍ مُتكامِلٍ : اجْتِماعِيًّا واقْتِصادِيًّا وإنْسانِيًّا ، تَمَكَّنَتْ مِنْهُ رُوحُ الْمُشارَكَةِ ،

---

(١) محمد البهي : منهج القرآن في تطوير المجتمع ، ص ١٨-٢٣ .

علَى أساسٍ مِنَ الْوَعْيِ بالإنْسانِ ، في جَمِيعِ أفْرادِهِ : فَيُقْدِمُ علَى الْعَطاءِ ، بَدَلاً مِنْ أنْ يأخُذَ ، فَحَسْبُ . ثُمَّ يُساعِدُ غَيْرَهُ مِنْ فَضْلِ كَسْبِهِ هُوَ ، بَدَلاً مِنْ أنْ يَسْتَهْلِكَهُ ، لِمَنْفَعَتِهِ الْخاصَّةِ بِهِ وَحْدَهُ . فيَتَكَوَّنُ الْحِسُّ الاجْتِماعِيُّ الإنْسانِيُّ الرَّفِيعُ ، كَمُحَصِّلَةٍ نِهائِيَّةٍ للعِباداتِ ، وثَمَرَةٍ طَيِّبَةٍ مِنْ ثِمارِها .

يَسْتَمِرُّ «البَهِيُّ» في بيانِ : مَنْهَجِ تَطَوُّرِ التَّشْرِيعِ القُرآنِيِّ ، لِبِناءِ الْمُجْتَمَعِ الإسْلامِيِّ ، عَنْ طَرِيقِ عِبادَتَيِ الصَّومِ والْحَجِّ ، فيَقُولُ : (شُرِعَ الصَّوْمُ للتَّحَمُّلِ في سبيلِ الإيمانِ بالْوَحْدانِيَّةِ . . . والْحَجُّ شُرِعَ كَمَسِيْرَةٍ ، لِهَذِهِ الْوَحْدانِيَّةِ ، لِذَا فإنَّ التَّشرِيْعَ القُرآنِيَّ ، يَقْضِي بأنْ تَكُونَ الصَّلاةُ هِيَ الْعِبادَةُ الأُولَى في تَشْرِيعِها ، [الَّتِي مِنْ شأنِها أنْ تُسْهِمَ ، في مَنْهَجِ بِناءِ الْمُجْتَمَعِ الإسْلامِيِّ] . . . والْحَجُّ هُوَ خاتِمَةُ هَذِهِ الْعِباداتِ . . . والزَّكاةُ والصَّوْمُ بيْنَهُما . لِذلكَ فإنَّ التَّكْلِيفَ بالصَّلاةِ كانُ مُبَكِّراً ، ثُمَّ تَلَتْها الزَّكاةُ ، في صُورةِ الإنْفاقِ العامِّ .

أمَّا الصَّوْمُ : فكانَ التَّكْلِيفُ بِهِ مُقْتَرِناً للتَّكْلِيفِ بالزَّكاةِ ، أوْ بَعْدَها بِقَلِيْلٍ ؛ لأنَّ مُساعَدَةَ الضُّعَفاءِ في الْمُجْتَمَعِ ، عَنْ طَرِيقِ عِبادَةِ الزَّكاةِ ، أوِ الإنْفاقِ الْخَيِّرِ بِوَجْهٍ عامٍّ : لا يَقِلُّ عَنها ـ في الْحِفاظِ علَى تَماسُكِ الْمُجْتَمَعِ ـ التَّكْلِيفُ بالصَّوْمِ ، كَعِبادَةٍ تَسْتَهْدِفُ التَّمَرُّسَ علَى الصَّبْرِ والتَّحَمُّلِ ، في سَبِيْلِ الإيْمانِ .

فالزَّكاةُ والصَّوْمُ : يَسْتَهْدِفانِ في مَنْهَجِهِما غايَةً واحِدَةً ، وهِيَ : سَلامَةُ الْمُجْتَمَعِ مِنَ التَّفَتُّتِ والتَّفَكُّكِ ، [لا سيّما] مِنَ الرَّوابِطِ [الأصِيلَةِ] الَّتِي جَمَعَتْ بيْنَ أفْرادِهِ ، [ويكونُ ذلكَ] بِتَصْفِيَةِ النُّفُوسِ مِنَ الْحِقْدِ ، وتَزْكِيَتِها وتَطْهِيرِها مِنْ غَلَواءِ الأنانِيَةِ أوِ الْماديَّةِ)[1].

فالصَّوْمُ عَنْ طَرِيْقِ تَحَمُّلِ الْحِرْمانِ مِنَ الْمُتَعِ الْماديَّةِ ؛ فإنَّهُ يَنْجُمُ مِنْهُ ، ويَتَوَلَّدُ عَنْهُ : شُعُورُ الإحْساسِ الاجْتِماعِيِّ ، حيثُ يُهْرَعُ الأغنياءُ ، بِزَكاةِ أمْوالِهِم ؛

---

(١) محمد البهي : منهج القرآن في تطوير المجتمع ، ص٢٤-٢٥ .

لِتَلْبِيَةِ حاجاتِ الْفُقَراءِ الْمُحْتاجِينَ ، ومُواساةِ البائِسِينَ الْمُعْوَزِينَ ، عَنْ طَرِيقِ الإِعْطاءِ والْمُعاوَنَةِ .

وَبالتَّالي يتَلازَمُ الصَّوْمُ والزَّكاةُ ، في منْهَجِهِما ، فَيُنْتِجانِ ما يُسَمَّى بِتَضامُنِ الْمُجْتَمَعِ الإِيمانِيِّ الْواحِدِ ، مِمَّا يَدْحَرُ الفاقَةَ والْحِرْمانَ ، وَيُعالِجُ آفَةَ التَّسَوُّلِ والسَّرِقَةِ والْعُدْوانِ فَيَنْشأُ الأَمْنُ الْغِذائِيُّ ، وَالاسْتِقْرارُ النَّفْسِيُّ ، والاطْمِئْنانُ الرُّوحِيُّ ، إِذْ تَتَكَوَّنُ منها مُجْتَمِعَةً : الحضارَةُ الإِنسانِيَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ ، وَيَنْتُجُ التَّطَوُّرُ الإِيجابِيُّ الَّذِي تَنْشُدُهُ أُمَمُ الأَرضِ اليومَ .

فالعباداتُ الأَرْبَعُ : الصَّلاةُ ، الزَّكاةُ ، الصَّوْمُ ، والْحَجُّ ، هِيَ : الْمُقَوِّمُ الثّاني بَعْدَ عَقِيدَةِ التَّوحِيدِ للهِ تعالَى وَحْدَهُ . إِذْ هِيَ الشَّعائِرُ ، أَيْ : الْعَلاماتُ الفارِقَةُ أَوِ الظَّاهِرَةُ ، الَّتِي تَتَمَيَّزُ بها حياةُ الْمُجْتَمَعِ الإِسلامِيِّ .

لِهَذا نَوَّهَ الحديثُ الشَّرِيفُ ، في أَهَمِيَّةِ هَذِهِ الْعِباداتِ ، وحَقِيقَتِها : كَمِنْهاجٍ مُتَكامِلٍ في تَرْبِيَةِ الأُمَّةِ ، ثُمَّ لِتَشْيِيدِ وتَطْوِيرِ حَضارَتِها ، مُعاصَرَةً وَتَجْدِيداً . لأَنَّها بِمَثابَةِ أَساسِ البناءِ الَّذِي يَقُومُ عليهِ الإِسلامُ كُلُّهُ .

وَيُدَلِّلُ علَى ذلكَ حَدِيثُ رَسُولِ اللهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ التّالي : عَنْ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، وإِقامِ الصَّلاَةِ ، وإِيتاءِ الزَّكاةِ ، وَحِجِّ الْبَيْتِ ، وَصَوْمِ رَمَضانَ »[1] . إِنَّ الإِسلامَ : لا يَتَحَقَّقُ عِنْدَ أَحَدٍ ، إِلاَّ بالإِيمانِ بِهَذِهِ الأَرْكانِ الْخَمْسَةِ ، فَمَنْ أَنْكَرَ واحِداً منها فَقَدْ كَفَرَ ، وَمَنْ تَرَكَ واحِداً منها تَهاوُناً فَقَدْ فَجَرَ .

---

(١) محمد بن عيسى بن سَوْرَةَ السلمي التِّرمذيّ ، مختصر سنن الترمذي ، اختصره وشرح جمله وعلّق عليه ، مصطفى ديب البغا ، رقم الحديث « ٢٦١٢ » ص ٣٨٤ . ورواه مسلم ، رقم الحديث « ٦٢ » ، ص٣٠ .

فالصَّومُ مَدْرَسةٌ مَنْهَجِيَّةٌ ، تُرَبِّي المُؤْمِنَ : علَى مُقاوَمَةِ الْهَوَى والشَّهَواتِ ، والتَّحَمُّلِ في مُواجَهَةِ الشدائِدِ والأَزَماتِ . أمَّا عِبادَةُ الْحَجِّ ، فَهِيَ : (مسيرَةُ الْمؤْمِنِ لتأكيد الإعلانِ ، بِوَحْدانِيَّةِ اللهِ تعالَى . . . فإنَّها في الْوَقْتِ نَفْسِهِ ، احْتِفالٌ بِعَوْدَةِ رِسالَةِ اللهِ تعالَى ، إلى إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ : [حَيْثُ عادَتْ] إلَى صفائِها في وَحْدَةِ الأُلوهيَّةِ ، وتَطْهِيرِ عَقِيْدَةِ التَّوْحِيْدِ ، مِنْ رِجْسِ الْوَثَنِيَّةِ المادِّيَّةِ . [وهُنا تَلْمَسُ بِوضوحٍ مَنْهَجَ التطَوُّرِ في الطَرْحِ الْمَوْضُوعِيِّ ، الْمُتَجَدِّدِ في عبادَةِ الْحَجِّ].

فَمَسِيْرَةُ الْمُؤْمِنِينَ بِرسالَةِ سَيِّدِنا مَحَمَّدٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، لا يؤَكِّدُونَ فيها وحْدَةَ الأُلوهِيَّةِ فَحَسْبُ ، إنَّما يُعِيْدُونَ إلَى أَذْهانِ الْبَشَرِيَّةِ : تاريخَ الرِّسالَةِ الإلهيَّةِ مُنْذُ آدَمَ عليهِ السَّلامُ . مُتَجَسِّداً هذا التَّاريخُ في الكَعْبَةِ ، مُعَبِّراً بها عَنِ الدِّينِ الْحَقِّ في وحْدَةِ الأُلوهِيَّةِ . قالَ اللهُ تعالَى :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(آل عمران:٩٦،٩٧).

[في ضَوْءِ الآياتِ القُرآنِيَّةِ الكَرِيمَةِ ، تأْكِيدٌ بأَنَّ :] فَرِيْضَةَ الْحَجِّ ، وَما اقْتُرِنَ بها مِنْ مَعْنًى تاريْخِيٍّ عَظيمٍ ، يَتَّصِلُ بالرِّسالَةِ الإلَهِيَّةِ . فإنَّ وجُوبَ أَدائِها مَشْرُوطٌ بالاسْتِطاعَةِ الْخاصَّةِ ، مادِّيًّا وأمْنِيًّا وَصَحْباً ، للسَّفَرِ إلَى مَكَّةَ . فيقُولُ اللهُ سُبْحانَهُ وتعالَى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران:٩٧). [يَتواصَلُ القُرآنُ الكريمُ ، بِمَنْهَجِهِ الْمَوضُوعِيِّ مِنَ التَّكْلِيفِ بِعِبادَةِ الْحَجِّ وتفْصِيلِ أَداءِ فَرِيْضَتِهِ ـ في قَوْلِهِ تعالَى : ﴿ وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ (البقرة ١٩٦) . ـ إلَى تَحْدِيدِ الْهَدَفِ مِنَ الْحَجِّ ، أَلا وَهُوَ :] إعْلانُ وِحْدَةِ الأُلوهِيَّةِ ، وَمُقاوَمَةِ الْمادِّيَّةِ الْوَثَنِيَّةِ . فَيَقُولُ اللهُ سُبْحانَهُ وتعالَى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ (الحج:٢٦-٢٩). حَدَّدَ اللهُ تعالَى مكانَ الكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ ، أي البيْتِ الْحَرامِ ، وَهُوَ أَوَّلُ بيْتٍ وُضِعَ للنَّاسِ على الأرْضِ ، لِعبادَةِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالَى ، فيهِ . إذْ يقُولُ اللهُ تعالَى : ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ مِنْ تِجارَةٍ وغيْرِها . ﴿ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ ﴾ .

الأيامُ المعلوماتُ ، تعْنِي : العاشِرَ مِنْ شَهْرِ ذي الْحِجَّةِ ، وهُوَ يومُ عِيْدِ الأَضْحَى ، وأَيَّامَ التَّشْرِيقِ الثَّلاثَةِ بَعْدَهُ . ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ . أيْ ويَذْبَحُوا في هَذِهِ الأيامِ ، ما يُقَدِّمُونَهُ مِنَ الْهَدْيِ . ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ . [ثُمَّ لِيُشارِكَ الأغنياءُ إخوانَهُم] الفُقَراءَ مَعَهُم فيما يُقَدِّمُونَهُ مِنْ هَدْيٍ ، تَقَرُّباً مِنَ الْمَوْلَى جَلَّ شأْنُهُ .

والْمُشارَكَةُ هُنا بيْنَ الْفُقَراءِ ، والَّذِيْنَ يَمْلِكُونَ الْمالَ : في الأكْلِ مِنَ الذَّبِيْحَةِ : لَها معنًى اجْتِماعِيٌّ ، يَقُومُ علَى تأْكِيدِ الاعْتِرافِ بالْمُساواةِ ، في الاعْتِبارِ الْبَشَرِيِّ ، بَيْنَ أفرادِ الْمُجْتَمَعِ الإسلامِيِّ جَميعاً ... وَعَلَى أَنَّ إطْعامَ الْفُقَراءِ ، مِمَّا لا يَتَيَسَّرُ لَهُم ، إلاَّ في مُناسَباتٍ محدودَةٍ : هُوَ عِلاجٌ لِحِقْدِ نُفُوسِهِم علَى الأثْرياءِ ، وتَقْرِيبٌ لَهُم مِنْ هؤلاءِ الأغنياءِ)[1].

فالتَّوحِيْدُ ، هُوَ الهَدَفُ الأساسُ : في مَنْهَجِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ كَسائِرِ الشَّعائِرِ والعِباداتِ الأُخْرَى . ثُمَّ يأْمُرُ اللهُ تعالَى بعْدَ ذلكَ ، نَبِيَّهُ إبراهيمَ الْخَلِيلَ عليهِ

(١) محمد البهي : منهج القرآن في تطوير المجتمع ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

السَّلامُ ، وجَمِيعَ أُمَّةِ التَّوْحِيدِ ، مِمَّنْ يأْتُونَ بَعْدَهُ ، إِلَى أَنْ يَرِثَ اللهُ تعالَى الأَرْضَ وَما عليْها ، وَمَنْ عليْها جميعاً ، بِتَطْهِيرِ بَيْتِهِ الْحرامِ ، أَيْ الْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ ، للحُجَّاجِ وَالْمُعْتَمِرِينَ ، وللَّذِيْنَ يَقُومُونَ فيهِ اللَّيلَ ـ في عبادَةِ اللهِ تعالَى ـ حَيْثُ يُباشِرُونَ الصَّلاةَ والذِّكْرَ هُناكَ أَيْضاً .

هكَذا تَمكَّنَ «البَهِيُّ» بِمَنْهَجِ الرَّبْطِ والتَّدَرُّجِ التَّكامُلِيِّ ، فِي عَرْضِ تَفْسيرِهِ الْموضُوعِيِّ ، لِتَشْرِيعِ عِبادَةِ الْحَجِّ في ثلاثِ سُوَرٍ قُرآنِيَّةٍ كَريمَةٍ مَدَنِيَّةٍ ، وكأَنَّها حَلَقَةٌ واحِدَةٌ مُتَناسِقَةُ التَّناغُمِ ، في حَبْكِ مَوضُوعِها . حيثُ تناولَ : تَشْرِيعَ التَّكليفِ ، وتَفْصِيلَ الأَداءِ ، منْ وَحْيِ سورةِ البقَرَةِ ؛ لأَنَّ الْمُجْتَمَعَ الْمَدَنِيَّ ، كانَ : في حاجَةٍ ماسَّةٍ ، إِلَى مَعْرِفَةِ الأُصُولِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تُراعَى ، في أَداءِ فَريضَةِ الْحَجِّ ، بعدَ أَنْ تَمَكَّنُوا مِنَ فَتْحِ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ ، فَتْحاً مُبيناً ، جَعَلَهُم يُحَطِّمُونَ الْوَثَنِيَّةَ الْماديَّةَ فيها . تَدَرَّجَ إِذاً مَنْهَجُ التَّشْرِيعِ في مَوضوعِ عبادَةِ الْحَجِّ ، إِلَى تَحْدِيدِ المكانِ الَّذِي يُؤَدَّى فيهِ ، وَمُبَرِّراتِ هَذا التَّحْدِيدِ ، مِنَ الْوُجْهَةِ التَّاريخِيَّةِ للرِّسالَةِ الإِلَهِيَّةِ ، كما تَبَيَّنَ في الْبَحْثِ آنِفاً ، مِنْ ظِلالِ آياتِ سُورةِ آلِ عِمْرانَ . إِذْ كانَ الْمُجْتَمَعُ الْمُسْلِمُ ، في حاجَةٍ ماسَّةٍ أيضاً ، لِتَوْضِيحِ : السَّبَبِ في أَنَّ مَكَّةَ : هِيَ مكانُ الْحَجِّ ؛ دَفْعاً لِما قَدْ يُظَنُّ : لأَنَّ مَكَّةَ تقَعُ في جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، كانَ مُبَرِّراً لِقَصْدِها ، عِنْدَ أَداءِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ ، حَيْثُ كانَ الْمُجْتَمَعُ الإِسلامِيُّ في الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، في تلكَ الْمَرْحَلَةِ ، يُعِدُّ نَفْسَهُ : لِحَمْلِ الدَّعْوَةِ بالإِسلامِ إِلَى خارِجِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، في أَرْضِ الرُّومِ والْفُرْسِ . لذلكَ جاءَ الهَدَفُ مِنَ الْحَجِّ مُحَدَّداً ، أَلا وَهُوَ توحيدُ اللهِ تعالَى في العِبادَةِ ، كما وَرَدَ المكانُ والزَّمانُ مُحَدَّدَيْنِ أَيضاً ، في آياتِ الْقرآنِ الكَريمِ ، لِدَحْرِ أَنواعِ وأَلْوانِ التَّوَهُّمِ والظَّنِ الْمُسْتَقْبَلِيِّ . وفي نِهايَةِ مَطافِ سِلْسِلَةِ الْوِحْدَةِ الْمَوْضُوعِيَّةِ ، في مَنْهَجِ تطَوُّرِ تَشْرِيعِ فَرِيْضَةِ الحَجِّ : جاءَ التأْكِيدُ لِهَدَفِ هَذِهِ الْعِبادَةِ ، مِنْ خِلالِ بَعْضِ آياتِ

سُورَةِ الْحَجِّ : وهُوَ إعْلانُ وِحْدَةِ الأُلوهِيَّةِ ، في مُواجَهَةِ الْوَثَنِيَّةِ المادِّيَّةِ ، وَتَبِعاتِها . هَكَذا يَكونُ الترابُطُ والتَّكامُلُ الموضوعِيُّ وافياً ، بينَ العِباداتِ أَوِ الشعائِرِ الإِسلامِيَّةِ ، في مَنهَجٍ مَوْضُوعِيٍّ وَصْفِيٍّ واحِدٍ ، يتَّصِلُ بموضوعٍ واحِدٍ ، مِمَّا يُتيحُ الْمَجالَ للباحِثِ في القُرآنِ الْمَجِيْدِ ، بأَنْ يَجْعَلَ الآياتِ الشَّرِيفَةَ ، ذات الْموضُوعِ الْواحِدِ ، نَصْبَ عَيْنَيْهِ ، فَيَضَعُها في إِطارٍ واحِدٍ مُتَناسِقٍ ؛ لِيَسْتَكْشِفَ بِوُضُوحِ الهَدَفَ الَّذِي يَقْصِدُ القُرآنُ الكريمُ إليهِ ، والْمَعْنَى الَّذِي يُعَوِّلُ عليهِ . في إِحْكامِ بناءِ المُجْتَمَعِ الإِسلاميِّ الواحِدِ في تضامُنِهِ ومشاعِرِهِ ، وأساليبِ تقدُّمِهِ وتطوُّرِهِ ، بموضوعيَّةٍ مُتأنِّيَةٍ ، وأُصُولٍ جَذْرِيَّةٍ ثابتَةٍ .

* * *

الخاتِمَةُ

البهيُّ في الْمِيزانِ (ما لَهُ وَما عليْهِ) :

يُعَدُّ «مُحَمَّدُ البَهِيُّ» مُفَكِّراً إسْلامِيًّا كَبيراً ، وأُسْتاذاً جامِعِيًّا مَرْمُوقًا ، يُشارُ إلَيْهِ بالْبَنانِ . تَقَلَّدَ مَناصِبَ عَدِيدَةً : قِيادِيَّةً إداريَّةً ، وثَقافِيَّةً تَرْبَوِيَّةً ، عَرَبِيَّةً وَإسْلامِيَّةً ، بَلْ وأَجْنَبِيَّةً غربيَّةً أَيْضاً ، حَيْثُ كانَ يُتْقِنُ اللُّغَةَ الأَلْمانِيَّةَ والإنْجِلِيزِيَّةَ ، نُطْقاً وكِتابَةً .

شَهِدَتْ لَهُ مَناصِبُهُ المُتعَدِّدَةُ جَمِيعُها بِحُبِّهِ لِلْعَمَلِ : نَزاهَةً وإخْلاصاً ، فَهُوَ يَتَمَتَّعُ بِتَفَوُّقٍ عِلْمِيٍّ قَلَّ نَظِيرُهُ ، كَما يَمْتازُ بِعَبْقَرِيَّةٍ فَذَّةٍ ، وشَخْصِيَّةٍ مُتَوازِنَةٍ ، كانَ صادِقاً مُتَواضِعاً ، ثابِتاً جريئاً ، لا يَخْشَى في الْحَقِّ لَوْمَةَ لائِمٍ . هَكَذا : (كانَ أَصِيلاً . . . في وَقْتٍ كانتِ الأَصالَةُ فيهِ [تُعْتَبَرُ عِنْدَ دُعاةِ الاشتراكيَّةِ] رَجْعِيَّةً . كانَ عَفِيفاً . . في وَقْتٍ كانتِ الْعِفَّةُ [تُعَدُّ أمامَ أَصْحابِ المصالحِ الشَّخْصِيَّةِ] عُمْلَةً نادِرَةً .

كانَ نَظِيفاً ... في وَقْتٍ كانتِ النَّظافَةُ فيهِ [بالنِّسْبَةِ للمادِّيِّينَ النَّفْعِيِّينَ] شُذُوذاً ، [وتَخَلُّفاً ساقِطاً ، لا قيمَةَ لَهُ] . كانَ شُجاعاً [أدبيًّا مِقْداماً] . . . في وَقْتٍ كانتِ الشَّجاعَةُ فيهِ [لَدَى عُملاءِ الاستعمارِ الإنْجليزيِّ] تَهَوُّراً . كانَ صادِقاً . . . في وَقْتٍ كانَ الصِّدْقُ فيهِ تَخَلُّفاً . . . [كما يراهُ المُتَحَرِّرُونَ مِنَ الْقِيَمِ الْعُليا ؛ لأَنَّهُم كانُوا يُمارِسُونَ الكَذِبَ أصلاً ، في كَثِيرٍ مِنْ أَقْوالِهِم ومُعاملاتِهِم ، تَحْتَ شِعارِ الدِّبلوماسِيَّةِ والسِّياسَةِ الْمَزْعومَتَيْنِ ، ثُمَّ إنَّ شِعارَ الكَذِبِ هذا ، يَتعارَضُ مَعَ حَدِيثِ رسولِ اللهِ ﷺ ، الَّذي يقُولُ فيه :] عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ الصِّدْقَ يَهْدي إلَى الْبِرِّ ، وإنَّ البِرَّ يَهْدِي إلَى الجَنَّةِ ،

وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقاً . وإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّاباً »[1].

كانَ « البهيُّ » : رَحِمَهُ اللهُ تعالَى قَوِيًّا بِرَبِّهِ ، عَزِيزاً بِدِينِهِ ، شامِخاً بِفِكْرِهِ . . . [بعيداً كُلَّ البُعْدِ عَنِ تُرَّهاتِ الكَذِبِ والفُجُورِ ، فَهُوَ يَتَحَرَّى الصِّدْقَ والإخلاصَ للهِ تعالَى ، في كِتاباتِهِ ومُعامَلاتِهِ ،] في وَقْتٍ تَقاصَرَتْ فيهِ قاماتُ رِجالٍ وَرِجالٍ ، [بَلْ أَشباهُ رِجالٍ مِمَّنْ يَدَّعُونَ الرُّجُولَةَ] . [لذا تَجِدُهُ جاداً في حياتِهِ ، صَبُوراً علَى كَثِيرٍ مِنَ المُعَوِّقاتِ والسُّلُطاتِ ، الَّتي أَرادَتْ أَنْ تحولَ بينَهُ ، وبينَ خُطَطِهِ في التَّطَوُّرِ والإصلاحِ ، لا يَكِلُّ ولا يَمَلُّ ، في مَحاوَلَةِ التَّغييرِ إلى الأَحْسَنِ والأَفْضَلِ ؛ لذلكَ تراهُ قَدْ] أَثَّرَ في الْحياةِ وتأَثَّرَ فيها ... فَتَرَكَ مِنَ الْمَعالِمِ والمناهِجِ التَّجْدِيدِيَّةِ والإِصْلاحِيَّةِ ، والأَفْكارِ الإِسلامِيَّةِ والإِنْسانِيَّةِ ... الْكَثِيرَ الْكَثِيرَ ... ثُمَّ اسْتَمَرَّ يُباشِرُ الْكِتابَةَ والتَّأْلِيفَ ، حتَّى آخِرَ لَحْظَةٍ مِنْ حياتِهِ)[2].

حَمَلَ لِواءَ الإِصْلاحِ والتَّجْدِيدِ ، في جَمِيعِ مُؤَلَّفاتِهِ وَنَدَواتِهِ وَمُحاضَراتِهِ وَلِقاءَاتِهِ ، الْعَرَبِيَّةِ والإِسلامِيَّةِ والعالَمِيَّةِ ، بِكُلِّ جَدارَةٍ واقْتِدارٍ ، وَوُضُوحٍ تامٍّ ، لا لَبْسَ فيهِ ولا غُمُوضٍ ، أَوْ زَيْفٍ . فكانتْ آثارُهُ الْعِلْمِيَّةُ : تَنْعكِسُ انْعِكاساً واقعيًا حَقِيقِيًّا ، علَى الحياةِ السِّياسِيَّةِ ، والاقْتِصادِيَّةِ ، والاجْتِماعِيَّةِ ، والثَّقافِيَّةِ التَّربويَّةِ . في العالَمِ الْعَرَبِيِّ والإِسلامِيِّ عامَّةً ، وفي مِصْرَ خاصَّةً . أَثناءَ حُقْبَةٍ[3]

---

(١) يحيى بن شرف النّووي : رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، راجعه ، محمد علي الصابوني ، حقّقه وعلّق عليه ، محيى الدين جراح ، رقم الحديث « ١٥٤٠ » ، ص ٦٨٠ .

(٢) وهبة حسن وهبة : من مقدمة مذكرات حياتي ، ص ٣-٧ .

(٣) الْحُقْبَةُ والْحُقْبُ والْحُقُبُ : ثمانونَ سنةً ، وقيلَ أكثر من ذلك ، وجمع الْحُقْبُ هِيَ : حِقابٌ . والْحِقْبَةُ مِنَ الدَّهْرِ : مُدَّةٌ لا وقتَ لها . والْحِقْبَةُ ، بالكَسْرِ : السَّنَةُ ، والجمع : حِقَبٌ وَحُقُوبٌ . انظر ، محمد بن مكرم بن منظور : لسان العرب ، مج ٣ ، ٢٥٣/٣.

حياتِهِ مُنْذُ ٣/ ٨/ ١٩٠٥م إلى ١٠ /٩ / ١٩٨٢م . إذْ عَمَّرَ سَبْعَةً وَسَبْعِينَ عاماً ، وَشَهْراً واحِداً ، وَسَبْعَةَ أَيَّامٍ ، أَيْ ما يُقارِبُ ثَلاثَةَ أَرْباعِ القَرْنِ الْعِشْرِين .

عاصَرَ الْحَرْبَيْنِ الكَوْنِيَّتَيْنِ : الأُولى ١٩١٤-١٩١٨م ، والثّانِيَةَ ١٩٣٩-١٩٤٥م ، كما شَهِدَ احْتِلالَ فلسطينَ في عامَي ١٩٤٨م ، ١٩٦٧م . ثُمَّ أَدْرَكَ العُدوانَ الثُّلاثِيَّ ، مِن الكيانِ الصُّهيونيِّ وفرنسا وبريطانيا ، على مِصْرَ عامَ ١٩٥٦م ، وعاشَ حربَ عُبُورِ قناةِ السُّويسِ ، في العاشرِ مِنْ رمضانَ عام ١٩٧٣م . ثُمَّ رأى بأُمِّ رأسِهِ القَضاءَ علَى الْخِلافَةِ الإسلامِيَّةِ ، عام ١٩٢٤م ، فازدادَ لَوْعةً وَحَسْرَةً ، عندما شاهَدَ دُولَ الْحُلفاءِ ، وهُمْ : يُفَتِّتُون بِلادَنا العربيَّةَ الإسلامِيَّةَ ـ مِنَ الْمُحِيطِ الأطْلَسِيِّ غَرْباً ، إلَى الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ شَرْقاً ـ إلى دُوَيلاتٍ مُصْطَنَعَةٍ ، تَحْتَ حُجَّةِ الاستعمارِ ، فكانَ هُوَ الخرابُ والدَّمارُ بِعَيْنِهِ ؛ لأَنَّ العُمارَ كانَ مِنْهُم بَراءُ . لكنَّ اليأسَ والقُنوطَ لَمْ يَجِدا مَنْفَذاً إلَى قَلبِ «البهيِّ» . إنَّما بَقِيَ ذلِكَ العالِمُ الأَزْهَرِيُّ ـ كالطَّوْدِ الأَشَمِّ ـ مُعلَّقاً فُؤادُهُ باللهِ تعالَى ، واصِفاً تِلكَ الْعَبَثِيَّةَ وَذلكَ الضَّياعَ الاسْتِعْمارِيَّ ، وَصْفَ مُجَرِّبٍ ، ذاقَ وَيْلاتِ الاسْتِبْدادِ والظُّلمِ والاحتلالِ . وكَثيراً ما تُخَرِّجُ الشَّدائِدُ الرِّجالَ ، لهذا انْبَرَى يُجاهِدُ ـ بِقَلَمِهِ السَّيَّالِ ، وكَلِمَتِهِ الصَّادِقَةِ ، ومؤَلَّفاتِهِ القيِّمَةِ ـ كُلَّ أَلوانِ الجاهليَّةِ والتَّخَلُّفِ والضَّياعِ . فيكونُ بِذلكَ قَدْ أَرَّخَ لِفَتْرَةٍ زَمَنِيَّةٍ هامَّةٍ ، مِنْ حياةِ الأُمَّةِ العربيَّةِ والإسلامِيَّةِ الْمُعاصِرَةِ ، بِفِكْرٍ يَقِظٍ واعٍ لِما يَجْرِي مِنْ أَحْداثَ ووقائِعَ دامِغَةٍ ، وبأُسلُوبٍ مَنْهَجِيٍّ موضُوعِيٍّ ، ونَقْدٍ لاذِعٍ : للنِّظامَيْنِ اللَّذَيْنِ ، ابْتُلِيَتْ بهما الأُمَّةُ العربيَّةُ والإسلامِيَّةُ : وهُما : النِّظامُ المادِّيُّ الرأسمالِيُّ الغَرْبِيُّ ، والنِّظامُ الشُّيُوعِيُّ الاشْتِراكِيُّ الشَّرْقِيُّ . حَيْثُ أَثْبَتَا فشلَهُما ، وعَدَمَ مواءَمَتِهِما للحياةِ الآمِنَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ ، في دُنيا النَّاسِ أَفْراداً ومُجْتَمَعاتٍ ، للأَسْبابِ التَّالِيَةِ :

أَوَّلاً : لِمُخالَفَتِهِما للفِطْرَةِ البَشَرِيَّةِ .

ثانياً : لِمُحارَبَتِهما للدِّينِ والتَّدَيُّنِ بِكُلِّ مَظاهِرِهِ .

ثالثاً : لخوائِهما مِنَ الْقِيَمِ العُليا والأخلاقِ الساميَةِ .

أَمَّا البديلُ الطَّبيعِيُّ الْحَقِيقِيُّ للنِّظامَيْنِ السَّابِقَيْنِ : هُوَ النِّظامُ الرَّبَّانِيُّ الإيمانِيُّ : إِنَّهُ الإِسلامُ ؛ لأَنَّهُ يَنْظُرُ مَثَلاً ، إِلَى المالِ في مِلْكِيَّتِهِ ، عَلَى أَنَّها : (مِلْكِيَّةٌ خاصَّةٌ ، وَفِي مَنْفَعَتِهِ ، بأَنَّها : مَنْفَعَةٌ عامَّةٌ ، تأْسيساً عَلَى مَبْدأ استِخْلافِ الإِنسانِ عَلَى مالِ اللهِ تعالَى أَصْلاً . والإِسلامُ يَخْتَلِفُ بِنَظْرَتِهِ هَذِهِ إِلَى المالِ ، عَنْ : نَظْرَةِ الرأْسْمالِيَّةِ الَّتِي تَرَى : أَنَّ الْمِلْكِيَّةَ الخاصَّةَ ، تَسْتَتْبِعُ الْمَنْفَعَةَ الخاصَّةَ لَهُ . وكَذلِكَ يَخْتَلِفُ : عَنْ نَظْرَةِ الاشْتِراكِيَّةِ ، في مَفْهُومِ الْبَلْشَفِيَّةِ ، الَّتِي تَرَى : أَنَّ تَحْقِيقَ الْمَنْفَعَةِ الْعامَّةِ للمالِ ، يَسْتَوْجِبُ الْمِلْكِيَّةَ الْعامَّةَ لهُ ، أَيْ يَسْتَوْجِبُ إِلْغاءَ الْمِلْكِيَّةِ الْخاصَّةِ . ولذلِكَ يَقُولُ اللهُ سُبحانَهُ وتعالَى :

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

(النحل: ٧١).

يُسوِّي اللهُ تعالَى في الآيةِ الكَريمَةِ ـ عَلَى سَبيلِ الْقَطْعِ ـ في مَنْفَعَةِ المالِ بيْنَ مَنْ يَمْلِكُهُ [وَهُمُ الأَغْنياءُ الْمَتْبُوعُونَ : الَّذِينَ فَضَّلَهُمُ اللهُ تعالَى بالرِّزْقِ] ، وَمَنْ لا يَمْلِكُهُ ، مِنَ الأَتْباعِ عَلَى وَجْهِ التَّأْكِيدِ . وإِذا لِم يؤْمِنْ هؤُلاءِ الَّذِينَ فُضِّلُوا في المالِ والرِّزْقِ ، بِحَقِّ أَتْباعِهِم في مَنْفَعَةِ أَمْوالِهِم ، فإِنَّهُم يَكْفُرُونَ :

أَوَّلاً : بأَنَّ المالَ أَصْلاً هُوَ للهِ تعالَى ، أي هُوَ المالِكُ الحقيقِيُّ للأعيانِ جميعِها .

ثانياً : بِمَنْعِ الْحَقِّ عنْ أَنْ يَصِلَ إِلَى صاحِبِهِ .

وَيَتَبَنَّى الإِسلامُ لِهَذِهِ النَّظْرَةِ في المالِ ، يَحُولُ دُونَ التَّواكُلِ واللامُبالاةِ في الْعَمَلِ ، بالْمِلْكِيَّةِ العامَّةِ في النِّظامِ الْبَلْشَفِيِّ ، [أو ما يدعى بالنظام تجاوزاً]

ويُحِدُّ مِنَ الأَنانِيَةِ والانْدِفاعِ في فِتْنَةِ المالِ ، وإغْرائِهِ علَى الْعَبَثِ والْفسادِ ، في الْمِلْكِيَّةِ الخاصَّةِ ، للنِّظامِ الرَّأْسْمالِيِّ)[1].

بناءً على ذلكَ ، فإنَّ : رِسالةَ الإسلامِ كَما هُوَ واضِحٌ ، في المَنْهَجِ الموضوعيِّ الْوَصْفِيِّ ، لَدَى «البَهِيِّ» : هِيَ إلهِيَّةٌ : تَنْظُرُ إلَى أفْرادِ الأُمَّةِ ، علَى أنَّ كُلَّ واحِدٍ فيهِم ، يَنْبَغِي أنْ يَحْمِلَ مَسْئُولِيَّتَهُ الخاصَّةَ ، باعْتِبارِهِ : ذاتٌ مُسْتَقِلَّةٌ . لكنَّهُ يَرْتَبِطُ مَعَ غَيْرِهِ ، عَنْ طَرِيقِ الرِّباطِ بالْقِيَمِ الإنسانِيَّةِ ، إيماناً وتَطْبيقاً .

هكَذا تَنْظُرُ الرِّسالَةُ الإسْلامِيَّةُ ، إلَى الْمُجْتَمَعِ القائِمِ علَى العلاقاتِ الإنسانِيَّةِ بيْنَ أفْرادِهِ : علَى أنَّهُ مُجْتَمَعُ واجِباتٍ ، أي يُؤَدِّي كُلُّ فَرْدٍ فيهِ واجِبَهُ . فإذا أُدِّيَتْ هَذِهِ الواجِباتُ ، وَصَلَتِ الْحُقُوقُ إلَى أصْحابِها ، دونَ عَناءٍ . فالفَرْدُ في الإسلامِ : يَظَلُّ يَمْلِكُ في غيْرِ حَدٍّ ، ولَهُ أنْ يُباشِرَ تَثْمِيرَ المالِ ، في حُرِّيَّةٍ كَفَلَها الإسلامُ .

يُحَدِّدُها فَقَط : دَفْعُ الضَّرَرِ ، وَجَلْبُ الْمَنْفَعَةِ . أيْ دَفْعُ الضَّرَرِ عَنْ طريقِ سُوءِ استخدامِ المالِ ، كما هو ظاهِرٌ في الْمُجتَمَعِ المادِّيِّ الجاهِلِيِّ . وأمَّا جَلْبُ مَنْفَعَةِ المالِ ، فَهِيَ لمالكِهِ : عندما يُحْسِنُ اسْتِخْدامَهُ ، كما هو في الْمُجْتَمَعِ الإسلامِيِّ الإنسانِيِّ .

بِهَذا المَفْهُومِ الَّذي يَدْعُو إلَى الرَّوابِطِ الإنسانِيَّةِ - بيْنَ الأفْرادِ في الدَّرَجَةِ الأُولى ، كما يَدْعو إلَى المَصالِحِ المادِّيَّةِ ، في الدَّرَجَةِ الثّانِيةِ ، ولكنْ في مُحِيطِ الْعلاقاتِ الإنسانِيَّةِ - ينْشأُ الْمُجْتَمَعُ الجديدُ ، الَّذي يراهُ «البهيُّ جَديداً : في تَوْجِيهِهِ ، واعْتِقادِهِ ، وسُلُوكِهِ . إذْ تَقُومُ علاقاتُهُ علَى الأُخُوَّةِ والْمَوَدَّةِ والتَّعاوُنِ ، وراءَ تَبادُلِ المصالِحِ والمنافِعِ ، ولكنْ في الدَّرَجَةِ الأُولى ، لَيسَتْ مادِّيَّةً .

---

(١) محمد البهي : الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلاميّة المعاصرة ، ص ٤٣، ٤٤.

هَكَذا جاءَتْ مُؤَلَّفاتُهُ ، وعَدَدُها : تِسْعَةٌ وَسِتُّونَ مُجَلَّداً ، يَحْمِلُ أَريجُها روحَ الأَصالَةِ والْمُعاصَرَةِ ، فأَصْبَحَ الإِصْلاحُ لَدَيْهِ عَبَقاً ، والتَّجْدِيدُ عِنْدَهُ لَبَقاً[1] ، وكأَنَّها حَديقَةٌ وارِفَةُ الظِّلالِ ، غَنَّاءُ غَيْناءُ[2] مُتَنَوِّعَةُ العَطاءِ ، منها : في الْفِكْرِ والعقيدَةِ ، وفِقْهِ العباداتِ والتَّفْسيرِ الموضُوعِيِّ ، والْوَعْظِ والإِرْشادِ ، والفلسَفَةِ وعلْمِ النَّفْسِ ، والسِّياسَةِ والاقْتِصادِ ، والاجتماعِ والتَّربيَةِ ، والعاداتِ والتَّقاليدِ ، وشؤونِ الأُسْرَةِ والْمرأَةِ ، والعَمَلِ والْخِدْمَةِ العامَّةِ . هذا وقَدْ أَظْهَرَ « البهيُّ » وَأَبْرَزَ في مَجالِ « ما لَهُ » مِنَ التَّجْدِيدِ والإِصْلاحِ ، الحقائقَ الْهامَّةَ التَّاليَةَ :

أَوَّلاً : يَقْصِدُ « البهيُّ » بِحَقِيقَةِ الإِصلاحِ الدِّينِيِّ في الإِسلامِ : مُحاوَلَةَ رَدِّ الاعْتِبارِ لِلقِيَمِ الدِّينِيَّةِ الإِيمانِيَّةِ ، وَدَفْعِ ما أُثيرَ حَوْلَها مِنْ شُبُهاتٍ وَشُكُوكٍ ، مِنْ أَعْداءِ الإِسلامِ في الدَّاخِلِ العَرَبِيِّ والإِسلامِيِّ : كأَدعياءِ التَّحَرُّرِ ، والوطنيَّةِ ، والاشتراكيَّةِ ، والمادِّيَّةِ . وَمِنَ الخارِجِ مُتَمَثِّلاً : بالعَلمانيَّةِ الغربيَّةِ الاستعماريَّةِ وأَزْلامِها : كالمادِّيَّةِ الإِلحادِيَّةِ . وَبالشَّرقيَّةِ الشُّيُوعيَّةِ وأشرارِها : كما بالدَّعْوَةِ الاشتراكيَّةِ الفاشِلَةِ وأَصنامِها ؛ لأَنَّ العامِلَ أَوِالعدوَّ الْمُشْتَرَكَ بينَهُم جميعاً ، كما

---

(١) عَبِقَ لَبِقَ : قالت العربُ : عَبِقَ الشيءُ بِقلبي عَبَقاً : بقيتْ رائحتُهُ [الطِّيِّبةُ] ، ورجُلٌ عَبِقٌ ، وامرأةٌ عَبِقَةٌ : إذا تطيّبَ وتعلّقَ به الطِّيبُ . ورجُلٌ عَبِقٌ لَبِقٌ : هُوَ الظَّريفُ ، لَبَقاً ولَباقَةً ، فهوَ لَبِقٌ ، واللَّبَقُ : الظَّرْفُ والرِّفْقُ ، الحُلو ، اللِّينُ الأخلاق ، ولبيقٌ : حاذقٌ ورفيقٌ بكل عملٍ . انظر ، محمد بن مكرم : لسان العرب ، مج٩ ، مج١١ ، ج ٩ ، ٢٢/١١ ، ٢٢٦ .

(٢) غَنَّاءُ غيناءُ : غنّاءُ : الْتَجَّ عُشْبُها واغْتَمَّ ، والغَنِيُّ : من أسماء اللهِ تعالَى الْحُسْنَى : هو الَّذي لا يحتاجُ إلى أَحَدٍ في شيءٍ ، وكُلُّ أَحَدٍ مُحتاجٌ إليهِ . وهذا هو الغنيُّ الْمُطْلَقُ . انظر . لسان العرب : مج ١٠ ، ١٣٤/١٠ .

غَيْناءُ : أي خضراءُ ، كثيرةُ الورق ، مُلتفةُ الأغصان ، والجمع : غِينٌ ، والْغَيْنَةُ : الْغَيْضَةُ ، وقيلَ هيَ الأشجارُ الْمُلْتَفَّةُ بلا ماءٍ ، فإِنْ كانت بماءٍ : فهيَ : الْغَيْضَةُ . انظر ، محمد ابن أبي بكر بن عبد القادر الرّازي : مختار الصحاح ، ص ٤٨٧ .

يَزْعُمُونَ أَوْ يَتَراءَى لَهُم ، هُو : التَّدَيُّنُ ومظاهِرُهُ عامَّةً ، والدِّينُ الإِسلامِيُّ وَعقيدَتُهُ خاصَّةً ، فَهُم يَقصِدونَ التَّخفيفَ مِنْ وَزْنِها في نُفُوسِ الْمُسلمِيْنَ ، بِشتَّى الوسائِلِ ، الَّتِي منها : مُحارَبَةُ مكارِمِ الأَخلاقِ ، والْقِيَمِ السَّاميَةِ والْمُثُلِ العُليا . لذلكَ حَمَلَ «البهيُّ» لواءَ الإِصلاحِ الدِّينيِّ ، مُبكِّتاً دَعوى الحاقِدينَ على الإِسلامِ وأَهْلِهِ .

ثانياً : مُحاولَةُ السَّيْرِ بالمبادئِ الإِسلامِيَّةِ ، مِنْ نُقْطَةِ الرُّكُودِ والجُمُودِ ، الَّتِي وَقَفَتْ عِنْدَها في فَتْرَةٍ غَيْرِ وَجيزَةٍ ، مِنْ حياةِ الْمُسلِمِيْنَ . وذلكَ بالانتِقالِ إِلَى حياةِ الْمُسلِمِ الْمُعاصِرِ ، لِوقْتِهِ أَوْ زَمَنِهِ ، بِحَيْثُ لا يَقِفُ مُسْلِمُ اليومَ ، مَوْقِفَ الْمُتَرَدِّدِ بَيْنَ أَمْسِهِ في الماضي وحاضِرِهِ الآنِيِّ ، ومُسْتَقْبَلِ حياتِهِ القادِمِ . بلْ يَنْبَغي أَنْ يَنْطَلِقَ عُلماءُ الإِسلامِ والإِصلاحِ فيهِ ، مِنْ مُنْطَلَقِ أَنَّ الإِسلامَ صالِحٌ لِكُلِّ زمانٍ ومكانٍ ، بالتَّلازُمِ وِفْقَ مصادِرِ التَّشريعِ الإِسلامي ، وبالتَّضامُنِ مَعَ قواعِدِ العقيدَةِ والشَّريعةِ .

ثالثاً : يَرْفُضُ بِشِدَّةٍ جميعَ الْمُحاولاتِ الفِكْرِيَّةِ الْمَشْبُوهَةِ ، الَّتِي يَدَّعِي القائِمُونَ بها وَعليها ، إِصْلاحاً أَوْ تَجْدِيداً في الإِسلامِ ، وهيَ في واقِعِ حالِها : إِخْضاعُ الإِسْلامِ لِلَوْنٍ مُعَيَّنٍ ، مِنَ التَّفْكِيرِ الأَجْنَبِيِّ الاستِعمارِيِّ ، سواءٌ في هَدَفِهِ ، الَّذِي يَرْنُو إِليهِ ، أَوْ فيما يَصْدُرُ عَنْهُ ، مَثَلُ الإِقليميَّةِ والقوميَّةِ ، وما يترَتَّبُ عليهِما مِن التَّجْزِئَةِ والتَّفْرِقَةِ ، وَذَهابِ رياحِ الأُمَّةِ الإِسلاميَّةِ الواحِدَةِ ، وَبَعْثَرَةِ قُوَّتِها .

رابعاً : اتَّخَذَ «البهيُّ» أساليبَ الْكَشْفِ عَنِ الْقِيَمِ الذَّاتِيَّةِ للإِسلامِ : ـ كالرَّحْمَةِ والتَّعاوُنِ ، والْعَدْلِ والإِنسانِيَّةِ ، والْمَحَبَّةِ والإِيْثارِ ، وغَيْرِها مِنَ القِيَمِ والْمُثُلِ العُليا ـ أَمارَةَ هِدايَةٍ وإِرْشادٍ ، للنَّاسِ في حياتِهِم ، وَمِشْعَلَ نُورٍ ، يُضيءُ لَهُم طريقَ الْبَذْلِ والعَطاءِ ، وَطابَعَ خَيْرٍ للإِصْلاحِ الحقيقيِّ ، في تَقْوِيمِ الْمِعْوَجِّ مِنَ العاداتِ والتَّقاليدِ الطارِئَةِ والْمُسْتَحْكِمَةِ ، على حَدٍّ سواءٍ بِسواءٍ ، وَإِضافَةَ تَجْديدٍ

في الإدارَةِ والقيادَةِ والتَّربيَةِ ، تَنجُمُ عنها المُساواةُ في التَّعامُلِ ؛ لإبْرازِ ذَوي الطَّاقاتِ الإبداعيَّةِ ، والْجَهْدِ الفرديِّ ، بحيثُ تَنعكِسُ أثارُها الإيجابيَّةُ علَى الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ والإنسانيَّةِ جميعاً .

خامساً : اهتَمَّ بِفَصْلِ ما أُدْخِلَ علَى الإسلامِ ، زُوراً وَبُهتاناً ، مِنْ تَحْرِيفٍ في التأويلِ ، أَوْ غُموضٍ في التَّفْسيرِ ، أَوْ رُكُودٍ في الْفَهْمِ . فأَعْلَنَ حَربَهُ الضَّروسَ ، علَى : أَصْحابِ الْبِدَعِ والْخُرافاتِ ، وأَرْبابِ السِّحْرِ والشَّعْوَذَةِ . لافتاً أَنْظارَهُم إلى صفاءِ العقيدَةِ ، وَسماحَةِ الإسلامِ ، وَبساطَةِ مبادئِهِ ، وبُعدِهِ عَنِ الفلسفَةِ الْمُعَقَّدَةِ ، ومَقْتِهِ للجَدَلِ العقيمِ وَالْمِراء ، مِمَّا جَعَلَ عامَّةَ النّاسِ وكثيراً مِنْ خاصَّتِهِم ، يُقْبِلُونَ علَى هذا الدِّينِ .

داعِياً إِيَّاهُم إلى الصَّوابِ ، الَّذِي كانَ عليهِ الرَّسُولُ ﷺ ، وأَصْحابُهُ الكِرامِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم . حيثُ وردَ النَّهيُ عَنِ البِدَعِ والفِتَنِ ، ومُحْدَثاتِ الأُمورِ ، عَنْ عائشَةَ رَضيَ اللهُ عنها قالَتْ : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : «مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنا هَذَا مَا لَيسَ مِنْهُ فَهوَ رَدٌّ» مُتفقٌ عليهِ . وفي روايةٍ لِمُسْلِمٍ : «مَنْ عَمِلَ عَملاً ليسَ عليهِ أَمْرُنا فَهوَ رَدٌّ»[1] . أي فَهُوَ مردودٌ على صاحبِهِ ، لا حاجَةَ ولا شأنَ للإسلامِ فيهِ ؛ لأنَّ الدِّينَ قَدِ اكتَمَلَ ، فلا يجوزُ لأَحَدٍ أَنْ يُنْقِصَ مِنْهُ ، ولا يزيدَ عليه شيئاً .

سادِساً : رأْيُهُ في الْعِلْمِ عامَّةً ، والشَّرْعِيِّ مِنْهُ خاصَّةً ، أَنَّهُ : رَحِمٌ بَيْنَ أَهلِهِ . لِذا فالإصْلاحُ والتَّجْديدُ لَدَيْهِ : تفكيرٌ ومنْهَجٌ ، يقومُ علَى النَّقْدِ والْبِناءِ ، في الوسائِلِ والأساليبِ والأَنْشِطَةِ . ويَخْلُصُ في النِّهايَةِ ، إِلَى : اعْتِبارِ قِيمَةٍ واحِدَةٍ ، هِيَ قِيمَةُ الإسلامِ في التَّوْجِيهِ الإنسانِيِّ .

---

(١) يحيى بن شرف النّووي : رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، رقم الحديث « ١٧٠ »، ص١١٤. ورواه الإمام مُسْلِم ، رقم الحديث « ١٢٣٧ » ، ص٣٧٦ .

سابعاً : كانَ يَرْنُو في مجالِ الإصْلاحِ الدِّينيِّ ، إلَى أنْ تَكونَ لَهُ صِلَةٌ وَثِيْقَةٌ بالْعَصْرِ الَّذي يَتِمُّ فيهِ ، وبِظُرُوفِ الْمَعِيشَةِ والْحياةِ العامَّةِ . لِذلكَ أَلَّفَ مُصَنَّفاً بعُنوان : « رأيُ الدِّيْنِ بينَ السائِلِ والْمُجيبِ ، في كُلِّ ما يُهِمُّ الْمُسْلِمَ الْمُعاصِرَ» وضَمَّنَهُ أَرْبَعَمِئَةٍ وثمانِيَةً وَسِتِّيْنَ سُؤَالاً ، في دائِرةِ الأُلوهِيَّةِ والواجِباتِ الدِّينِيَّةِ ، وشُئُونِ الأُسْرَةِ ، والعاداتِ والتقاليدِ ، ومشاكِلِ الْحَضارةِ الْمُعاصِرَةِ .

ثامناً : يَنْتَقِدُ الْحَرَكاتِ الدِّيْنِيَّةَ ، الَّتِي تَعْتَمِدُ تَبْسيطَ وتَسْطِيحَ ، تعاليمِ الإسلامِ ، إلَى دَرَجَةِ الْهُبُوطِ والتَّدَنِّي بها نَحْوَ الْعامِّيَّةِ . فَهُوَ يُغايِرُها تماماً : مَنْهَجاً وأُسْلُوباً ، حَيثُ يَدْعُو إلى أُسلوبِ النُّهوضِ والارتِقاءِ ، بالنَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ إلَى سُموِّ الإسلامِ ورِفْعَتِهِ ؛ لأَنَّهُ يَعْلو ولا يُعْلَى عليهِ .

تاسِعاً : تَقُومُ أَفْكارُهُ الإصْلاحِيَّةُ ، علَى وُجُوبِ فَهْمِ الإسلامِ ، فَهْماً دقيقاً صَواباً ، مِمَّا سيجْعلُ الْمُسْلِمَ أَكْثَرَ إلْماماً بِحَقِيقَةِ هَذا الدِّينِ ؛ لِكَي يَتَمَكَّنَ مِنَ السيْطَرَةِ علَى الْجَفافِ الماديِّ ، والْقَلَقِ النَّفْسِيِّ ، الَّذِي تَغَشَّى خَطَرُهُ السَّرَطانِيُّ الْخَبيثُ اليومَ ، إلَى أَقْتابِ[1] أَفْرادِ ومُجْتَمَعاتِ ، الْوَثَنِيَّةِ الماديَّةِ ، في الجاهليَّةِ الْمُعاصِرَةِ .

عاشِراً : يُمَيِّزُ «البَهِيُّ» بينَ التَّجْدِيدِ ، الَّذِي ابْتُلِيَتْ بِهِ كَثيرٌ مِنَ البلادِ العربيَّةِ والإسلاميَّةِ ، وَهُوَ في غالبيَّتِه تَقْلِيدٌ أَعْمَى للفِكْرِ الْغَرْبِيِّ ، في القرنِ التاسِعَ عَشَرَ ، والنِّصْفِ الأَوَّلِ مِنَ القَرْنِ الْعِشْرِينَ ، وبيْنَ الإصْلاحِ الدِّينيِّ الرَّشِيدِ . هَذا وقَدْ حذَّرَ الإسلامُ في الحديثِ النَّبَويِّ الشَّريفِ ، مِنَ التَّقْليدِ الأَعمى ، وأَمَرَ بالإحسانِ والْعَفْوِ . عَنِ أَبي الطُّفَيْلِ ، عَنْ حُذَيْفَةَ رضيَ عنْهُما قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «لاَ تَكُونُوا إمَّعَةً ، تَقُولُونَ : إنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا ،

---

(١) أَقْتاب : الْقِتْبُ والْقَتَبُ : أَلْمِعَى ، والجمعُ أَقْتابٌ . انظر ، محمد بن مكرم بن منظور ، مج ١١ ، ٢٨/١١ .

وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنا ، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُم : إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا ، وَإِنْ أَساؤُوا فَلا تَظْلِمُوا»[1].

في ضوءِ الحديثِ الشَّريفِ ، لا بُدَّ مِنْ أنْ تكونَ للمُسلمِ شَخصيَّتُهُ ، وَسَمْتُهُ الإيمانيُّ ، فلا يُقَلِّدُ الآخرينَ خَبْطَ عشواءَ ؛ لئلاَّ يظلِمَ نَفْسَهُ أَوْ غَيْرَهُ . لكنَّهُ يُعَوِّدُ نَفْسَهُ وَيُهيِّئُها ، على التقاطِ الْحِكْمَةِ أنَّى وَجَدَها ، فَهُوَ أَحَقُّ النَّاسِ بها ، وذلكَ بَعْدَ الْفَحْصِ الواعِي ، والتَّمْحِيصِ الدَّقيقِ .

الحادِيَ عَشَرَ : يَعْتَقِدُ أَنَّ الْفِكْرَ ليسَ نشاطاً عَقليّاً مُجَرَّداً فَحَسْبُ ، بَلْ لا بُدَّ أَنْ يقومَ علَى الاحْتِفاظِ بالْعَقِيْدَةِ الإسلامِيَّةِ ؛ لأنَّها ذاتُ صِلَةٍ مَتِينَةٍ ، بالْمَعْرِفَةِ والأَخْلاقِ مَعاً ، دونَ انْفِصالٍ أوِ انْقِطاعٍ بيْنَهُما .

الثَّانِيَ عَشَرَ : يُشِيرُ إِلَى أَنْواعِ المَفْهُومِ العامِّ للعَقِيدَةِ ، حَيْثُ إِنَّها تَتَعَدَّدُ وتَخْتَلِفُ ، باخْتِلافِ جوانِبِ الْحياةِ الإِنْسانِيَّةِ ، فَعَنْ جانِبِها الاقْتِصادِيِّ : تَتَكَوَّنُ الْعَقِيدَةُ الاقْتِصادِيَّةُ . وَمِنْ جانِبِها السِّياسِيِّ : تَنْشأُ العقيدَةُ السِّياسِيَّةُ . وفي جانِبِها الاجْتِماعِيِّ والأَخْلاقِيِّ : تَنْبُعُ العقائِدُ الاجْتِماعِيَّةُ والأَخْلاقِيَّةُ . وعَنْ جانِبِها الدِّينِيِّ : تَتَكَوَّنُ العقائِدُ الدِّينِيَّةُ : الَّتِي يَكُونُ لها التَّفَوُّقُ في التَّأْثِيرِ ، والسَّبْقُ في التَّوْجِيهِ ، مِمَّا يَجْعَلُها دائِماً ، علَى رأْسِ هَذِهِ الأَنْواعِ مِنَ الْعقائِدِ ، ومَوْضِعِ الاهتِمامِ البالِغِ ، مِنَ الْعُلَماءِ والْمُصْلِحِينَ والْمُرَبِّينَ ، خاصَّةً في الْمجالَيْنِ الدِّينِيِّ والاجْتِماعِيِّ .

الثَّالِثَ عَشَرَ : يَعْتَمِدُ في فَلْسَفَتِهِ لِعِلْمِ النَّفْسِ : علَى مَبْدَإٍ مَنْهَجِيٍّ ، يُصَوِّرُ فيهِ الصِّلَةَ الْوَثِيْقَةَ ، بَيْنَ الْعَقِيدَةِ بمفْهُومِها العامِّ والْخاصِّ والسُّلوكِ الإِسلامِيِّ

---

(١) محمد بن عيسى بن سورة الترمذي : مختصر سنن الترمذي ، اختصره وشرح جمله وعلّق عليه ، مصطفى ديب البغا ، رقم الحديث «٢٠٠٨» ، ص٢٧٥ .

الإنْسانيِّ ، فَيَجْعَلُ العقيدَةَ أَصْلاً وقاعِدَةً للسُّلوكِ النَّفْسيِّ والْعَمَلِيِّ . فالسُّلُوكُ والأَخلاقُ بِدَوْرِهِما ، إذاً : هُما أَثَرٌ وانْطِباعٌ عَنها .

الرَّابِعَ عَشَرَ : يؤَكِّدُ أَنَّ التَطَوُّرَ ، يكونُ : في خُطُواتِ الْمَنْهَجِ القُرآنِيِّ ، وليسَ في مبادئِ الرِّسالَةِ الإلَهِيَّةِ ؛ لأَنَّ عِلْمَ اللهِ سُبحانَهُ وتعالَى ثابِتٌ ، لا يَتَغَيَّرُ بِحالٍ مِنَ الأَحْوالِ . والأَمْرُ الَّذِي يَتَغَيَّرُ : هُوَ الاسْتِعْدادُ النَّفْسِيُّ ، لِمَنْ يَدْعُونَ إِلَى الإيمانِ ، وعلَى حَسَبِ تَغَيُّرِ هَذا الاستِعْدادِ النَّفْسِيِّ ، يَنْزِلُ وَحْيُ اللهِ تعالَى بالأَمْرِ والنَّهْيِ ، ومِنْ أَجْلِ ذلكَ : نَزَلَ القُرآنُ مُنَجَّماً ، حَسَبَ الْوقائِعِ والأَحْداثِ ، في ثلاثَةٍ وَعِشْرِينَ عاماً .

الخامِسَ عَشَرَ : يَعْتَبِرُ « البهيُّ » الإسلامَ ـ في مجالِ التَّربيَةِ والتَّعليمِ ـ تَجْرِبَةً تاريخِيَّةً ، نَفْسِيَّةً ، واجْتِماعِيَّةً : في نَقْلِ الإنسانِ ، مِنْ عاداتٍ وتقاليدَ وأَوْضاعَ ، تُعَبِّرُ عَنْ الْوَثَنِيَّةِ والمادِّيَّةِ ، إِلَى عاداتٍ جَديدَةٍ ، وتقاليدَ أُخرَى مُخْتَلِفَةٍ ، وأَوْضاعَ تُعَبِّرُ عَنْ طَرْحِ الوَثَنِيَّةِ ، وإبْعادِها مِنْ حياةِ الإنسانِ . كما تُعَبِّرُ عَنْ إنسانِيَّةٍ فاضِلَةٍ ، في الْعَلاقاتِ بَيْنَ الأَفْرادِ ، في الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ .

السَّادِسَ عَشَرَ : يُوَضِّحُ أَنَّ الإسلامَ بِما يُقَرِّرُهُ ، مِنْ مَبْدأِ التَّكافُلِ ، فإنَّهُ : يَضْمَنُ للفردِ وللمُجْتَمَعِ الحياةَ الكَريمَةَ الآمِنَةَ ، ويَكْفُلُ للمرأَةِ وللأُسْرَةِ اسْتِقْرارَهُما ، ويُؤَمِّنُ للعامِلِ في الْمَصْنَعِ : مُسْتَوًى رفيعاً مِنَ الْمهارَةِ ، وطاقَةً قَوِيَّةً علَى الإنْتاجِ .

السَّابِعَ عَشَرَ : الْمُقَوِّمُ الثّاني للمُجْتَمَعِ الإسلامِيِّ ـ بَعْدَ العَقِيدَةِ ـ هُوَ العِباداتُ أَوِ الشّعائِرُ الَّتِي فَرَضَها اللهُ تعالَى علَى الْمُسلمِيْنَ ، وكَلَّفَهُمُ القيامَ بها ، لِيَتَقَرَّبُوا إليهِ ، ويَبْتَغُوا رِضْوانَهُ . أَمّا تَعظيمُها وإقامَتُها : فَهُوَ دليلٌ علَى قُوَّةِ العَقِيْدَةِ في القُلُوبِ ، واسْتِقْرارِها في حنايا الصُّدُورِ . يقُولُ اللهُ تعالَى : ﴿ **ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ** ﴾ (الحج:٣٢) . وإنَّما سُمِّيَتْ هذهِ الفرائِضُ شعائِرَ ؛ لأَنَّها علاماتٌ إيمانِيَّةٌ فارِقَةٌ ، وظاهِرَةٌ تَتَمَيَّزُ بها حياةُ الْفَرْدِ والْمُجْتَمَعِ

الْمُسْلِمِ ، عَنْ غَيْرِهِم . كما أَنَّ في أدائِها غِذاءً روحيّاً ، يُشيرُ إلى استحْكام التَّقوى في القُلوبِ ، والَّتِي مِنْ معانيها : الخوفُ مِنَ اللهِ تعالَى ، والْخَشْيَةُ لَهُ وَحْدَهُ سُبحانَهُ .

الثّامِنَ عَشَرَ : يُؤَكِّدُ أَنَّ الْمُجتَمَعَ ، الَّذِي يَسْقُطُ في تَبَعِيَّةِ الطُّغيانِ الاقْتصادِيِّ الْمادِّيِّ ، لا يكونُ تَحَوُّلُهُ إلى الْمُجتمعِ الإنسانيِّ الجَديدِ ، أوِ الْمُجتمعِ الإسلامِيِّ ، بأداءِ التَّكاليفِ دَفْعَةً واحِدَةً ؛ لأنَّ الانْتِقالَ دَفْعَةً واحِدَةً ، مِنْ نَقِيضٍ إلى نَقيضٍ ، لا يُسايِرُ الالتِزامَ الذّاتِيَّ ، الَّذي هُوَ أَساسُ الإيمانِ وخاصِيَّةُ الاعْتِقادِ ؛ إذاً يَجِبُ التَّريُّثُ وعدمُ التَّسَرُّعِ ، مَعَ الإخلاصِ والعَمَلِ الجادِّ في التَّغْييرِ .

التّاسِعَ عَشَرَ : احْتَفَظَ «البهيُّ» في مَنْهَجِهِ التَّفسيرِيِّ الموضُوعِيِّ ، للقُرآنِ الكريمِ ، بتَقْسيمِهِ : إلَى مَكِّيٍّ ومَدَنِيٍّ : وجَعَلَ عُنوانَ القرآنِ المكِّيِّ في تفسيرِهِ : «القرآنُ في مُواجَهَةِ المادِّيَّةِ» . وكان في ترتيبِهِ ـ بعدَ الانتهاءِ مِنْ تَفسيرِ القرآنِ المكِّيِّ ـ أَنْ يُقَسِّمَ المدَنِيَّ ، إلى قِسْمَيْنِ :

- **الأَوَّلُ** : القرآنُ في بناءِ الْمُجتمعِ .
- **الثّاني** : القُرآنُ في تَنْظِيمِ الْمُجْتَمَعِ .

الْعِشْرونَ : كانَ رَحِمَهُ اللهُ تعالَى ، يُقَدِّرُ الْكِفاياتِ ، فَلا يُجامِلُ علَى حِسابِ الْحَقِّ ، لِذا فَهُوَ يُعْطِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، ثُمَّ يَذْكُرُ للنَّاسِ فَضْلَهُم ، بَلْ وَيُحْسِنُ تَقْدِيرَهُم ، وَيَنْسَى الإساءَةَ . لَمْ يَكُنِ «البَهِيُّ» نَبِيّاً مُرْسَلاً ، ولا مَلَكاً مُقَرَّباً ، إِنَّما كانَ عالِماً إنساناً ، وَمُفَكِّراً إسلامِيّاً ، وأزْهَرِيّاً جليلاً ، وَمُفَسِّراً مَوْضُوعِيّاً ، وأُستاذاً جامِعِيّاً مَرْمُوقاً ، ضَليعاً بِلُغَةِ الْغَرْبِ المادِّيِّ الْعَلْمانِيِّ ، عارِفاً وَمُلِمّاً بِفِكْرِ الشَّرْقِ الشُّيُوعِيِّ الإلْحادِيِّ .

لِهَذا تَصَدَّى لِكَثِيرٍ مِنَ الْفَلْسَفاتِ الدَّخِيلَةِ ، علَى الفِكْرِ الإسلامِيِّ ، لِيُعَرِّيَ زِيفَهَا ويكْشِفَ خِداعَها البَرَّاقَ ، وفي نِهايَةِ الْمَطافِ : يَطْرَحُ الْحَلَّ الإسلامِيَّ

الأصيلَ ، النَّابِعَ مِنْ تَعْلِيمِهِ الأزْهَرِيِّ ، ورُوحِهِ الْمُؤْمِنَةِ ، الْمُعانِقَةِ لِثَقافَتِهِ الإسلامِيَّةِ الْمَسْتَوْحاةِ مِنْ كتابِ اللهِ تعالَى ، وسُنَّةِ رَسولِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

رابِطاً ذلكَ بِدراسَتِهِ الفَلْسَفِيَّةِ الشَّرقِيَّةِ والغَربِيَّةِ ، بِرباطٍ واحِدٍ وَثِيقٍ ، مُسْتَخْلِصاً منها الأصِيلَ النَّفيسَ ، جاعِلاً إيَّاهُ تَحْتَ رايَةٍ واحِدَةٍ ، هِيَ : لتكُونَ كَلِمَةُ اللهِ تعالَى هِيَ العُليا . طارِحاً الدَّخيلَ الزَّائِفَ إلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ .

ذلِكَ دأْبُهُ في جَمِيعِ مُؤَلَّفاتِهِ ، الَّتِي تَنْبِضُ بالفِكْرِ الْيَقِظِ الْحَيِّ . إذْ بِعَوْنِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالَى ، سَتَظَلُّ مِصْباحاً مُضِيئاً دائِماً ، في دياجِيرِ الأفكارِ العَلْمانِيَّةِ الْمُلْحِدَةِ .

اتَّجَهَ« البهيُّ» في الأعْوامِ الأخِيْرَةِ مِنْ حياتِهِ ، إلَى التَّفْسِيرِ الْمَوضُوعِيِّ للقُرآنِ الكَريمِ ، فكانَ لَهُ مَنْهَجُهُ الْخاصُّ ، حَيْثُ خَرَجَ بِهِ عَنْ دائِرَةِ التَّفاسِيرِ التَّقْلِيْدِيَّةِ ، شَكلاً ومَوْضُوعاً ، فَقَدَّمَ بِذلِكَ رؤًى جدَيدَةً لآياتِ الكِتابِ الْمَجِيدِ ، عُنِيَ فيها بِتَصْحِيحِ كَثِيرٍ مِنَ الْمفاهِيمِ والأفْكارِ والسُّلُوكِيَّاتِ ، مِنْ مُنْطَلَقِ الْفَهْمِ الصَّائِبِ لِكِتابِ اللهِ تعالَى . ثُمَّ أعطَى اهْتِمامَهُ للأفكارِ الْمُجَرَّدَةِ والقِيَمِ ، في مَجالِ تَطْبيقِها . وكَما هِيَ العادَةُ غالِباً في أَمْرِ ، الْمُصْلِحِينَ والْمُفَكِّرِينَ والْمُجَدِّدِينَ ، عِنْدَما يَقُومُونَ بإصْلاحٍ أَوْ يأْتُونَ بِجَدِيدٍ . فإنَّ القَدِيْمَ أحْياناً ، يَتَكاتَفُ لِمُقاوَمَةِ الْجَدِيدِ ومُحارَبَةِ الإصلاحاتِ ولكنَّ النَّاسَ عامَّةً بَعْدَ حُقْبَةٍ مِنَ الزَّمنِ ، يأْلَفُونَ ما كانَ جَدِيداً ؛ لأنَّهُم يَجِدُونَ فيهِ العِلاجَ النَّاجِعَ لأدْوائِهِم وأمْراضِهِم ، فيَطْمَئِنُّونَ علَى تَطوِيرِ بِلادِهِم ، بِتَحْقِيقِ الإصْلاحِ والتَّجْدِيدِ ، في شَتَّى مَناحِي مَعِيشَتِهِم وحياتِهِم . هَذا شأْنُ الْمُجْتَمَعاتِ في التَّطَوُّرِ والتَّطْوِيرِ[1]،

(١) التَّطوُّرُ والتَّطْويرُ : التَّطَوُّرُ : التَّغَيُّرُ التَّدريجِيُّ الَّذِي يَحْدُثُ في بِنْيَةِ الكائناتِ وسُلُوكِها ، [كما] يحدثُ في تركيب المجتمَعِ ، أو العلاقات ، أو النُّظُم ، أو القِيَمِ السائِدَةِ فيهِ . انْظر ، إبراهيم مدكور : المعجم الوجيز ، ص ٣٩٦ . أمَّا التَّطْوِيرُ : هو التَّغيير --

بِكُلِّ عَصْرٍ وَمِصْرٍ[1]. هَكَذا حَدَثَ أَيْضاً مَعَ «البَهِيِّ» رَحِمَهُ اللهُ تعالَى ، حَيْثُ إِنَّهُ ما تَوَلَّى أَمْراً مِنَ الأُمُورِ ، إِلاَّ وَرأَى بِعَيْنِهِ الفاحِصَةِ ، مَكامِنَ الاعْوجاجِ فيهِ ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى مَصْدَرِ الفسادِ مِنْهُ ، فكانَ يَعْمَلُ بِكُلِّ طاقَتِهِ وَجَهْدِهِ ، عَلَى تَقْوِيمِ ما اعْوَجَّ ، وإِصْلاحِ ما فَسُدَ . لِذلكَ قاوَمَهُ الْكَثِيرُونَ مِمَّنَ أَرادَ الْخَيْرَ لَهُم ، فَحارَبُوا أَوامِرَهُ وَشَكَّكُوا فيها ، وأَطْلَقُوا عليهِ مِنَ الأَلْقابِ ما شاءَتْ لَهُم تَخَيُّلاتُهُم . (فقالُوا مَرَّةً : الْوَزِيرُ القاسِي .. وقالُوا أُخْرَى : الْوَزِيرُ الَّذِي لا يَرْحَمُ ولا يَتَسامَحُ ، وهَذا الصِّنْفُ مِنَ النَّاسِ . . وإِنْ كانَ قليلاً . . إِلاَّ أَنَّهُ عُنْصُرٌ فَعَّالٌ في التَّشْوِيشِ والتَّشْكِيكِ . ولكِنَّهُ رَحِمَهُ اللهُ تعالَى ، لِمْ يَكُنْ يَقْسُو إِلاَّ عَلَى مَنْ يَسْتَحِقُّ . . ولَمْ يَرْحَمْ قَطُّ ظالِماً ، أَوْ يَتَسامَحْ مَعَ مُقَصِّرٍ . . بَلْ يَقِفُ دائِماً في صَفِّ الضُّعَفاءِ ، وأَصْحابِ الْحُقُوقِ ـ وكَم كانَ في الأَوْقافِ مِنْ ضُعَفاءَ وأَصْحابِ حُقُوقٍ ـ فكانَتْ صَلابَتُهُ في الْوُقُوفِ مَعَ الْحَقِّ قاعِدَةً . . وإِنْ غَضِبَ لِذلِكَ النَّاسُ جميعاً . . ولَمْ يَكُنْ يَغْضَبُ مِنْهُ إِلاَّ أَصْحابُ الأَهْواءِ . . وكَمْ عانَى في سبيلِ رَأْيِهِ وعَقِيدَتِهِ الْكَثِيرَ الْكَثِيرَ .. ولكِنَّهُ الصَّابِرُ الْمُحْتَسِبُ)[2]. لَمْ يَكْتَرِثْ كَثيراً بِرأْيِ النَّاسِ فيهِ ، خُصوصاً تلكَ النَّوْعِيَّةِ ، مِنْ أَصْحابِ الأَهواءِ ، حَسْبُهُ مِنْ عَمَلِهِ ، بِأَنَّهُ يبْتَغِي مَرْضاةَ اللهِ سُبحانَهُ وتعالَى . لِذا فإِنَّ أَفْكارَهُ ومُؤَلَّفاتِهِ ، سَتَظَلُّ بينَ أَيْدِي طُلابِ الْعِلْمِ ، تَنْبِضُ بالحياةِ . فَتُضِيءُ الطَّرِيْقَ لَهُم ، وَلِكُلِّ جادٍّ

ـ الَّذي يَتَمَثَّلُ في الجُهودِ الإِنسانيَّةِ ، وتبدو فيه أعمالُ الْمُكَلَّفِينَ الاختياريَّةِ ، الَّتي هيَ مناطُ الْحُكْمِ عليها ، بالخَيْرِ أَو الشَّرِّ ، بالخطأ أَو الصَّوابِ ، ثمَّ بِمَبْلَغِ مُلاءمَتِها ، لصالِحِ المُجْتَمَعِ ، وَرُقِيِّ الإِنسانيَّةِ . انظر ، محمد عبد الرحمن البيصار : العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع ، ص٣٧ .

(١) مَصَّرَ القومُ المكانَ : جعلوها مِصْراً ، مَصَّرَ الأَمْصارَ : بناها . الْمِصْرُ : المدينةُ الكبيرةُ ، تُقامُ فيها الدُّورُ والأَسواقُ والمدارسُ ، وغيرُها مِنَ المرافِقِ العامَّةِ ، والجمعُ : أمصارٌ . انظر ، إبراهيم مدكور : المعجم الوجيز ، ص ٥٨٣ ، ٥٨٤ .

(٢) وهبة حسن وهبة : من مقدمة مذكرات حياتي ، ص ١٢-١٤ .

مُجِدٌ ، مُخْلِصٍ للهِ سُبحانَهُ وتعالَى ، قَولاً وعَملاً . داعياً المولَى عَزَّ وَجَلَّ ، أنْ يَتَغَمَّدَ أُستاذَنا الفاضِلَ بواسِعِ رَحْمَتِهِ ، وأنْ يُسْكِنَهُ فَسِيْحَ جَنَاتِهِ ، إنَّهُ سُبحانَهُ وَلِيُّ ذلكِ والقادِرُ عليهِ . كما أسألُ اللهَ تعالَى العَلِيَّ الوَلِيَّ : أنْ يُقَيِّضَ لأُمَّةِ الإسلامِ ، مَنْ يُكْمِلُ مِشْوارَ التَّفسيرِ الموضُوعِيِّ ، للقُرآنِ المَدَنِيِّ ، الَّذِي رَتَّبَ لَهُ المَرْحومُ «البَهِيُّ» ، قَبْلَ أنْ يَسْبِقَ إلَيْهِ الأجَلُ الإلَهِيُّ الْحَتْمِيُّ ، حِيْثُ وَضَعَ لَهُ : عُنوانَيّ وُضُوحِهِ الْجَلِيِّ ، الأوَّلِيِّ والتَّالِيِّ :

١- القُرآنُ في بناءِ الْمُجْتَمَعِ الإسلامِيِّ

٢- القُرآنُ في تَنْظِيْمِ الْمُجْتَمَعِ الإسلامِيِّ

حِيْثُ أدْرَكَ بِقَلْبِهِ التَّقِيِّ النَّقِيِّ ، حاجَةَ الْمُجْتَمَعِ الْمَدَنِيِّ الإيمانِيِّ ، ثُمَّ مَنْ يَلِيهِم مِنْ أُمَّةِ الدِّينِ التَّوحِيْدِيِّ - خاصَّةً بَعْدَ القَضاءِ علَى الْعَهْدِ المادِّيِّ الجاهِلِيِّ - إلَى أُسُسٍ جَدِيدَةٍ لإعادَةِ صِياغَةِ بنائِهِ التَّنْظِيمِيِّ ، وفْقَ مَنْهَجِهِ الْمَوْضُوعِيِّ ؛ لكَيْ تَلْتَقِيَ وتَتَواءَمَ حَلَقاتُ مَشروعِ تَفسِيرِهِ النَّدِيِّ ، لآياتِ القُرآنِ الْمَكِّيِّ والْمَدَنِيِّ ، بيْنَ دَفَتَيِّ مُصنَّفٍ عَصْرِيٍّ ثَرِيٍّ . وأخيراً وليسَ آخِراً ، تَمَّتْ هَذِهِ الأطروحة بِعَوْنِ الله تعالَى الْغَنِيِّ القَوِيِّ . فَأَدْعُوهُ سُبحانَهُ : أنْ يكونَ هذا العَمَلُ والجَهْدُ ، خالصاً لِلذَّاتِ السَّرْمَدِيِّ الأبَدِيِّ ، وأنْ يَغْفِرَ لِيَ الذُّنوبَ والآثامَ ولِمُعَلِّمِيَّ ولِوالِدَيَّ ، وأنْ يَمُنَّ علينا بِنَظَرِ التَّمَتُّعِ ، إلَى وجْهِهِ الْكَرِيمِ عِنْدَ الْجَزاءِ الأُخْرَوِيِّ . والصَّلاةُ والسَّلامُ الأتَمَّانِ الأكْمَلانِ ، على سَيِّدِ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ ، نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَوِيِّ ، وآلِهِ وَصَحْبِهِ والتَّابِعِينَ وتابِعِيهِم ، ذَوِي الْقَدْرِ الْجَلِيِّ .

* * *

المصادِرُ والمراجِعُ

القُرآنُ الكريمُ .

أولاً : المصادرُ :

أ- «مؤلّفاتُ : مُحَمَّدُ مُحَمَّدُ قُرْقُرُ البهيُّ» :

١- الإسلام فطرة الله ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

٢- الإسلام في الواقع الأيديولوجي المعاصر ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٩م .

٣- الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، مكتبة وهبة القاهرة ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

٤- الإسلام في حياة المسلم ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٥٦م .

٥- الإسلام كنظام حياة ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٦٠م .

٦- الإسلام واتجاه المرأة المسلمة المعاصرة ، دار الاعتصام ، بيروت ، ١٩٧٤م .

٧- الإسلام والاقتصاد ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

٨- التربية في المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٥٨م .

٩- التفسير الموضوعي ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٠هـ/١٩٧٨م .

١٠- الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٤م .

١١- الدين والدولة من توجيه القرآن الكريم ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٩م .

١٢- الشباب بين التطرف في الإيمان والشك في الله ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٦م .

١٣- العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

١٤- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٥٧م .

١٥- الفكر الإسلامي في تطوره ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .

١٦- الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر ، مشكلات الأسرة والتكافل ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .

١٧- القرآن الكريم يقول في الإيمان والمؤمنين ، في المادية والماديين في السلوك ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .
١٨- المجتمع الحضاري وتحدياته من توجيه القرآن الكريم/ مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
١٩- رأي الدين بين السائل والمجيب ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٣م .
٢٠- مجلة التفكير الإسلاميّ ، محاضرة بعنوان : العَلمانيَّة والإسلام بين الفكر والتطبيق ، ملحق رقم « ١ » ، قاعة دار الفتوى اللبنانيّة ، بيروت ، الثاني من ربيع الثاني ، عام ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م
٢١- محاضرات الموسم الثّقافيّ ، محاضرة بعنوان : أثر الروحيّة في توجيه الشّباب ، وزارة الإعلام والثّقافة ، أبو ظبي ، رقم المحاضرة « ١٥ »، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

ب ـ المصادر القديمة :

١- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لا . ط ، ١٣٧٩ .
٢- إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (٧٠٠-٧٧٤هـ) : تفسير القرآن العظيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧ م .
٣- عبد الله بن أحمد بن محمد بن قُدامة : المُغني ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لا . ط ، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م .
٤- عبد الله بن عمر البيضاوي : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م .
٥- محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي : مختار الصحاح ، لجنة من مركز تحقيق التّراث بدار الكتب المصريّة ، القاهرة ، لا . ط ، لا . ت .
٦- محمد بن إسماعيل الأمير اليماني الصنعاني (١٠٥٩-١١٨٢هـ) : سبل السلام شرح بلوغ المرام مع جمع أدلّة الأحكام ، تحقيق عصام الصبابطي وعماد السيّد ، دار الحديث ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .
٧- محمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ) : المختصر في تفسير القرآن « مختصر من الإمام الطّبري » ، عُني بتنقيحه وتحريره ، عدنان زرزور ، مؤسّسة الرّسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

٨- محمد بن عبد الحق بن عطية الأندلسيّ : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، المعروف بتفسير ابن عطيّة ، تحقيق وتعليق ، محمد الشّافعيّ ، مؤسّسة دار العلوم ، الدّوحة ، قطر ، ط١ ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .
٩- محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستانيّ : الملل والنّحَل ، تحقيق ، محمد سيد كيلاني ، دار صعب ، بيروت ، لا . ط ، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م .
١٠- محمد بن عيسى بن سورة السلميّ التّرمذيّ ، مختصر سنن التّرمذيّ ، اختصره ، مصطفى ديب البغا ، اليمامة للطّباعة والنّشر ، دمشق ، ط١ ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م .
١١- محمد بن محمد الخطيب الشّربيني : مغني المحتاج إلى معرفة معنى المنهاج ، دراسة وتحقيق ، علي معوض ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .
١٢- محمد بن محمد العمادي «المعروف بأبي السُّعود» : تفسير أبي السُّعود» المسمّى «إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القرآن الكريم» ، دار إحياء التّراث العربي ، بيروت ، لا . ط ، لا . ت .
١٣- محمد بن مكرم بن منظور (٦٣٠-٧١١هـ) : لسان العرب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٣ ، لا . ت .
١٤- محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (المتوفى سنة ٨١٧هـ) : معجم القاموس المحيط ، رتّبه ووثّقه ، مأمون شيحا ، دار المعرفة ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م .
١٥- مسلم بن الحجاج القشيري النّيسابوريّ : مختصر صحيح مسلم ، اختصره ، عبد العظيم عبد القوي المنذري : اليمامة للطّباعة والنّشر ، دمشق ، ط٢ ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .
١٦- موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر : المعرب من الكلام الأعجميّ على حروف المعجم ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مطبعة دار الكتب المصريّة ، القاهرة ، ط٣ ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م .
١٧- نور الدّين بن علي بن أبي بكر الهيثميّ : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، مؤسّسة المعارف ، بيروت ، لا . ط ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

١٨- ياقوت بن عبد الله الحموي (توفي عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) : معجم البلدان ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م .
١٩- يحيى بن شرف النّووي الدّمشقيّ (٦٣١-٦٧٦هـ) : رياض الصالحين ، حقّق نصوصه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه ، شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٧ ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م .
٢٠- يحيى بن شرف النّوويّ الدّمشقيّ : نزهة المتقين «شرح رياض الصّالحين» ، تحقيق مصطفى الخن وآخرون ، مؤسّسة الرّسالة ، بيروت ، لا . ط ، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م .

ثانياً : المراجع :

أ- الدراسات المعاصرة والحديثة :

١- إبراهيم مدكور : المعجم الوجيز ، الهيئة العامّة للكتاب ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٧٣م .
٢- أبو بكر جابر الجزائري : أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م .
٣- أبو بكر جابر الجزائري : منهاج المسلم ، مكتبة الحكم الدينيّة ، المدينة المنورة ، ط١ ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .
٤- أحمد السيد الكومي : التفسير الموضوعي ، دار الهدى ، القاهرة ، لا . ط ، ١٩٨٠م .
٥- أحمد جمال العمري : دراسات في التفسير الموضوعي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ .
٦- أحمد شلبي : أديان الهند الكبرى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط١١ ، ١٩٩٩م .
٧- أحمد مصطفى المراغي : تفسير المراغي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لا. ط ، ١٣٦٥هـ .
٨- أحمد مهدي محمد الشويخات : الموسوعة العالميّة العربيّة ، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط٢ ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م .

٩- أريج غازي : تاريخ العرب والعالم المعاصر ، إدارة المناهج والكتب المدرسيّة في وزارة التربيّة والتّعليم ، عمّان ، ط١ ، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م .
١٠- أنتوني نانتج : ناصر ، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد ، بيروت ، لا . د ، ط١ ، ١٩٨٥م .
١١- أنور الجندي : عالميّة الإسلام ، دار الاعتصام للطّباعة والنشر ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٧٨م .
١٢- جمعة أحمد قاجة : غزة خمسة آلاف عامٍ حضور وحضارة ، دار العلوم العربية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٣م .
١٣- حسن الشّرقاوي : الأخلاق الإسلاميّة ، مؤسّسة مختار للنشر والتّوزيع ، لا . ط ، لا . ت .
١٤- خالد رحال محمد الصّلاح : العقائد المشتركة بين اليهود والنّصارى وموقف الإسلام منها ، رسالة ماجستير تم نشرها ، دار العلوم العربيّة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م .
١٥- ساطع الحصري : محاضرات في نشوء الفكر ، لا . د ، القاهرة ، لا . ط ، ١٩٥١م .
١٦- سامي عبد العزيز الكومي : الصحافة الإسلامية في مصر في القرن التاسع عشر ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، المنصورة ، ط١ ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م .
١٧- سعد الدين السيد صالح : بين علم الاجتماع الإسلامي وعلم الاجتماع الغربي «دراسة مقارنة» ، مكتبة الصحابة ، جدّة ، السعودية ، لا . ط ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .
١٨- سعيد حوّى : الإسلام ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
١٩- سيد قطب : التّصور الفني في القرآن ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ط١، ١٩٤٤م .
٢٠- سيد قطب : في ظلال القرآن ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٧ ، ١٩٧١م .
٢١- شوقي ضيف : تفسير سورة الرحمن وقصار السُّور ، دار المعارف ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٨٩هـ .

٢٢- طه حسين : في الشعر الجاهلي ، دار الكتب المصريّة ، القاهرة ، لا . ط ، ١٩٢٥م .
٢٣- طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر ، مطبعة المعارف ، القاهرة ، لا . ط ، ١٩٣٨م .
٢٤- عباس خامه يار : إيران والإخوان المسلمين ، تعريب ، عبد الأمير الساعدي : مركز الدراسات الاستراتيجيّةِ والبحوث والتّوثيق ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧م .
٢٥- عبد الحليم عويس : الشيخ محمد الغزالي «مراحل عظيمة في حياة مجاهد عظيم» ، دار الصّحوة ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م .
٢٦- عبد الرحمن حسن حبنكة : العقيدة الإسلاميّة وأسسها ، دار القلم ، دمشق ، ط٧ ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م .
٢٧- عبد الرؤوف مخلوف : الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن «دراسة تحليليّة نقديّة»، مكتبة الحياة للطّباعة والنّشر ، بيروت ، لا . ط ، ١٩٧٨م .
٢٨- عبد العزيز فهمي هيكل : مدخل إلى الاقتصاد الإسلاميّ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لا . ط ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .
٢٩- عبد العزيز فهمي هيكل : نظم اقتصاديّة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لا . ط، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م .
٣٠- عبد الكريم الخطيب : التفسير القرآني للقرآن ، دار الفكر العربي ، بيروت ، لا . ط ، لا . ت .
٣١- عبد الله بن زيد آل محمود : الاشتراكية الماركسيّة ومقاصدها السّيئة ، الدّوحة ، قطر ، لا . ط ، لا . ت .
٣٢- عبد الله عزّام : العقيدة وأثرها في بناء الجيل ، مكتبة الرسالة الحديثة ، عمّان ، لا . ط ، ١٩٧٩م .
٣٣- عبد الله عوض خبّاص : سيد قطب .. الأديب النّاقد ، شركة الشّهاب ، الجزائر ، لا . ط ، لا . ت .
٣٤- عبد المتعال الصعيدي : المجدّدون في الإسلام ، مكتبة الآداب ومطبعتها ، القاهرة ، لا . ط ، لا . ت .
٣٥- عثمان العثمان : الاستراتيجيّة المطلوبة لإقامة الدّولة الفلسطينيّة ، مؤسّسة سندباد ، دمشق ، ط١٢ ، ٢٠٠٧م .

٣٦- عرفان عبد الحميد : دراسات في الفِرَقِ والعقائد الإسلاميّة ، مؤسّسة الرّسالة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٤م .
٣٧- عز الدّين بليق : منهاج الصالحين من أحاديث وسُنّةِ خاتَمِ الأنبياءِ والمرسلينَ ﷺ ، دار الفتح للطباعة والنشر ، بيروت ، ط١، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
٣٨- علي عبد الرازق : الإسلام وأُصول الحكم ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٢٥م .
٣٩- علي عزّت بيجوفيتش : الإسلام بين الشرق والغرب ، ترجمة ، محمد يوسف عدس ، مؤسّسة العالم الحديث ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م .
٤٠- عوض الله حجازي : في الفكر الإسلامي «العقيدة الإسلاميّة» ، مطبعة جامعة الإمارات العربيّة المتّحدة ، العين ، لا . ط ، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م .
٤١- غازي محمد طلال عبد الله : الثقافة العامّة ، وزارة التربيّة والتّعليم ، عمّان ، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م .
٤٢- قسطنطين تيودوري : المنجد في اللغة والأعلام ، منشورات المكتبة الشّرقيّة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٧م .
٤٣- كامل موسى وعلي دحروج : كيف نفهم القرآن ، دار بيروت المحروسة ، بيروت ، لا . ط ، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .
٤٤- كرم البستاني وآخرون : المنجد في الأعلام ، دار المشرق ، بيروت ، ط ٢٧ ، ٢٠٠٥م .
٤٥- مانع بن حمّاد الجهني : الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، النّدوة العلميّة للشّباب الإسلاميّ ، الرياض ، ط٢ ، ١٤٠٩هـ .
٤٦- محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلاميّة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، لا . ط ، ١٩٥١م .
٤٧- محمد الغزالي : تراثنا الفكري في ميزان الشّرع والعقل ، دار الشُّروق ، القاهرة ، ط٤ ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .
٤٨- محمد حسّان : خطب منبريّة ، دار ابن رجب ، دمياط ، ط١ ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .
٤٩- محمد حسين الذّهبيّ : التّفسير والمفسّرون ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٨م .

٥٠- محمد شامة : الإسلام كما ينبغي أن نعرف ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .
٥١- محمد عبد الرحمن بيصار : العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد ، منشورات المكتبة العصريّة ، صيدا ـ بيروت ، ط١ ، ١٩٨٠م .
٥٢- محمد علي الصّابوني : صفوة التفاسير ، دار القلم ، بيروت ، ط٥ ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .
٥٣- محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنيّة في الأدب العربيّ ، دار النّهضة العربيّة ، بيروت ، ط٣ ، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م .
٥٤- محمد محمود حجازي : التفسير الواضح ، دار الجيل ، بيروت ، ط٤ ، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م .
٥٥- محمد محمود حجازي : الوحدة الموضوعيّة في القرآن الكريم ، مطبعة المدنيّ ، القاهرة ، لا . ط ، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م .
٥٦- محمد ناصر الدّين الألبانيّ : سلسلة الأحاديث الصّحيحة ، المكتب الإسلاميّ ، دمشق ، ط٤ ، لا . ت .
٥٧- محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، دار الشّروق ، القاهرة ، ط١٠ ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .
٥٨- محمود شلتوت : تفسير القرآن الكريم ، «الأجزاء العشرة الأولى» دار الشّروق ، القاهرة ، ط٨ ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .
٥٩- محمود فوزي : حكّام مصر «السادات» ، مركز الراية للنشر والإعلان ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٧م .
٦٠- محمود محمد جمال الدّين : من تاريخ مصر المعاصر ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م .
٦١- مسعود النّدوي : الاشتراكيّة والإسلام ، تعريب صهيب حسن عبد الغفّار ، مطبعة المدينة ، الرياض ، ط١ ، ١٣٩٩هـ .
٦٢- مسعود بن موسى الفلوسي : الشيخ الغزالي غصن باسق في شجرة الخلود ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م .
٦٣- مصطفى خالدي وعمر فروخ : التّبشير والاستعمار في البلاد العربيّة ، المكتبة العصريّة ، صيدا ـ بيروت ، ط١ ، ١٩٨٦م .

٦٤- مصطفى صادق الرّافعيّ : إعجاز القرآن الكريم ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، لا . ط ، ١٣٥٩هـ .
٦٥- مصطفى كامل : المسألة الشّرقيّة ، دار مصر للطّباعة ، القاهرة ، ط١، ١٨٩٨م.
٦٦- مصطفى مشهور : بين القيادة والجنديّة على طريق الدّعوة ، دار الدّعوة للطّباعة والنّشر ، الإسكندريّة ، ط١ ، لا . ت .
٦٧- وهبة الزحيلي : الفقه الإسلاميّ وأدلّته ، دار الفكر ، دمشق ، ط٣ ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م .
٦٨- وهبة حسن وهبة : مقدمة مذكرات حياتي في رحاب الأزهر ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .
٦٩- يحيى هاشم فرغل : في الفكر الإسلامي ، مطبوعات جامعة الإمارات العربيّة المتحدة ، العين ، لا . ط ، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م .
٧٠- يوسف العظم : الشهيد سيد قطب ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .
٧١- يوسف القرضاوي : ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .

ب ـ الدّوريّات :« المجلاّت ، الصُّحُف ، البحوث ، المحاضرات ، المقالات ».

١- أنور الجندي : مجلّة الهلال ، مقال تأبين ، بعنوان : الدكتور البهيّ مُفسّرٌ للقرآن ومُفكّرٌ ، القاهرة ، عدد نوفمبر ١٩٨٢م .
٢- جابر رزق : مجلة الأمة القطريّة ، مقال تأبين ، بعنوان : آخر حوار مع الدكتور البهي ، الدّوحة ، قطر ، العدد ٢٧ ، السنّة الثالثة ، ربيع الأول١٤٠٣هـ / يناير كانون الثاني ١٩٨٣م .
٣- رشيد رضا : مجلّة المنار ، مقال بعنوان : الموالد ، القاهرة ، العدد الخامس والسادس ، من ١٢ أبريل إلى ١٩ أبريل ١٨٩٨م .
٤- شوقي ضيف : صحيفة دار العلوم ، مقال بعنوان : نماذج من التفسير الموضوعي ، من السنّة السابعة ، ج٣ ، سنة ١٩٥٨م .
٥- صحيفة الجمهوريّة اليوميّة : مقال بعنوان : الجامعة بين المؤمنين والمُلحدين والوجوديين ، القاهرة ، في ١٥سبتمبر ١٩٥٥م .

٦- صلاح نصر : مجلّة المُصوّر ، مقال بعنوان : مذكّرات كاملة ، الحلقة الرّابعة ، العدد ٣١٩٧ ، في ١٧ يناير ١٩٨٦م .
٧- عبد الجليل شلبي : مجلّة الأزهر ، مقال بعنوان : تأبين البهي ، ، السنة الخامسة والخمسون ، ج٣ ، ربيع الأول ١٤٠٣هـ/ ديسمبر ١٩٨٢م .
٨- عبد الله النديم : مجلّة الأُستاذ ، مقال بعنوان : لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا ، دار مصر للطّباعة ، عدد ١٧يناير ١٨٩٤م .
٩- مجلّة مجتمع الأحقاد : من رسائل جمعيّة الإصلاح والتّوجيه الاجتماعيّ ، مطبعة بنك دبيّ الإسلاميّ ، الإمارات العربيّة المتحدة ، لا . ط ، لا . ت .
١٠- محمد عبد الله السمان : مجلّة أُكتوبر القاهريّة ، مقال تأبين بوفاة البهي ، القاهرة ، العدد« ٣٤٧» ، السنة السابعة ، في ٩ رمضان ١٤٠٣هـ/ ١٩ يونية حزيران ١٩٨٣م .
١١- مصطفى المراغي : بحث في ترجمة القرآن الكريم وأحكامها ، مطبعة الرّغائب ، القاهرة ، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م .
١٢- مسيو هانوتو : جريدة المؤيد ، مناظرة بين مسيوهانوتو والشيخ محمد عبده ، القاهرة ، ترجمة الجزء الأول من المقال ، في ١٥ أبريل نيسان ١٩٠٠م .

ج ـ المقابلات الشخصية والفضائية :

١- سلطان حسين وهبة حسن : (ابن الحاج وهبة) مقابلة شخصية وزيارة خاصّة للباحث ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، في ٢١ مايو ٢٠٠٧م .
٢- ستانلي كوهين وأحمد منصور : مقابلة فضائية على الهواء مباشرة ، برنامج بلا حدود ، محطّة الجزيرة الفضائيّة ، الدوحة ، قطر ، في ٢١ نوفمبر ٢٠٠٧م.
٣- دكتور محمد فهيم غيث : (صهر الدكتور محمد البهى) مقابلة شخصية وزيارة خاصة للباحث ، القاهرة ، ميدان حي الزّيتون ، في ٢٣ مايو ٢٠٠٧م .